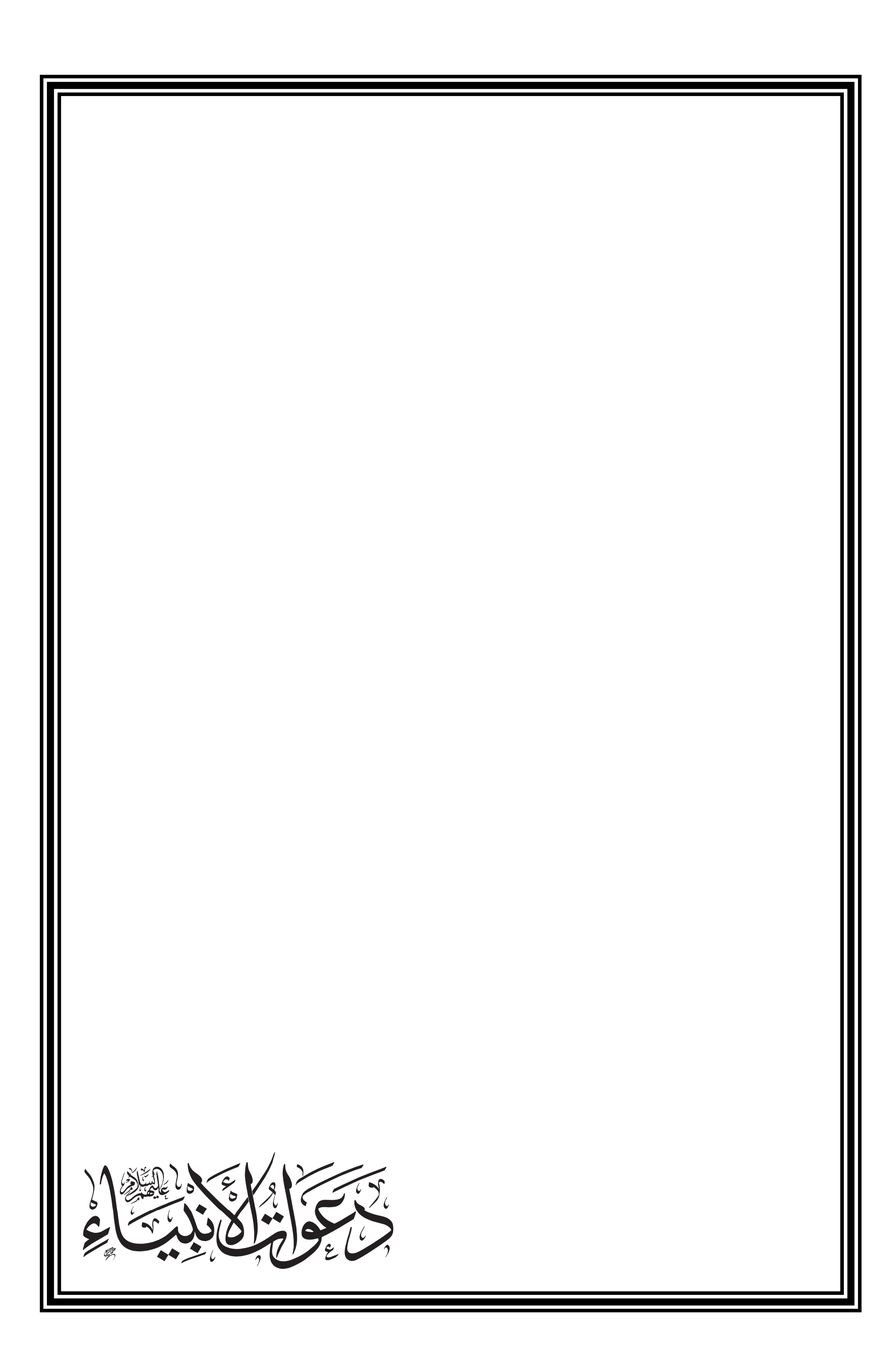


تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة


عليهم السلام
دعوات الأنبياء



تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمة

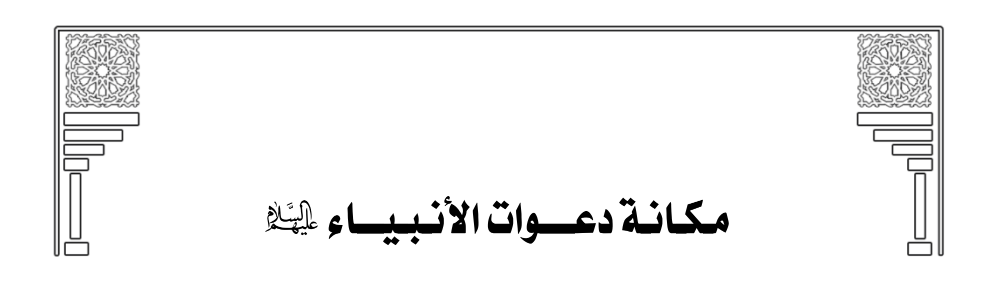
الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربُّنَا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُهُ؛ صلَّى اللهُ وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعدُ؛ فتحوي هذه الرِّسالة عرضًا لدعوات الأنبياء عليهم السلام الواردةِ في القرآن الكريم، وبيانًا لما فيها من حِكمٍ وعبرٍ وعظاتٍ استللتُها من كتابي «فقه الأدعية والأذكار» لرغبة بعض الأفاضل في طبعها مُفرَدةً، وأسأل اللهَ أن ينفعَ بها، وأن يَرزُقَنا حُسنَ الاقتداء بهم، والسَّيرَ على مِنْهَاجِهم، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

في ١١/ ٢/ ١٤٣٧



مكانة دعــوات الأنـبيــاء عليهم السلام

في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ ذكر الله y فيها أمثلةً من دعوات الأنبياء والمرسلين، ومناجاتهم لربِّهم، وتوسُّلهم إليه، وفزعهم إليه، وانكسارهم بين يديه، وذلِّهم وخضوعهم، ورغَبهم ورهَبهم، وكمال أدبهم في مناجاتهم لربِّهم وتضرُّعهم ودعائهم، وذلك ليتعلَّم عباد الله المؤمنون النَّهج السَّديد، والطَّريق الرَّشيد، والمسلك القويم في دعاء الرَّبِّ y ومناجاته.

ولهذا لَمَّا ذكر الله y في سورة الأنعام طرفًا من أخبارهم المباركة، وأعمالهم الجليلة، وأوصافهم الفاضلة قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهذا فيه أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ باتِّباع سننهم، ولزوم نهجهم، وتوجيهٌ لأمَّته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بأن يكونوا كذلك، وقد فعل ﷺ ما أُمر به، وامتثل ذلك حقَّ الامتثال؛ فاهتدى بهدي المرسلين قبله، وجمع كلَّ كمالٍ فيهم، فاجتمعت لديه فضائلُ مباركةٌ، وخصالٌ عظيمةٌ، فاق بها جميع العالمين، وكان سيِّدَ المرسلين، وإمام المتَّقين، وقدوة الصَّالحين، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

والأنبياء هم صفوة النَّاس وخلاصتهم، وفي قصصهم وأخبارهم عِبَرٌ وعظاتٌ بالغاتٌ للمؤمنين، ليقتدوا بهم في جميع مقامات الدِّين؛ في مقام التَّوحيد والقيام بالعبوديَّة، وفي مقامات الدَّعوة، والصَّبر والثَّبات عند جميع النَّوائب، والشَّدائد وتَلَقِّي ذلك بالسُّكون والثَّبات والطُّمأنينة، وفي مقام الصِّدق، والإخلاص لله في جميع الحركات والسَّكنات، وفيها من الوعظ والتَّذكير والتَّرغيب، والفَرَج بعد الشِّدَّة، وتيسير الأمور بعد تعسُّرها، وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدَّار ما فيه سَلوةٌ للمحزونين، وزادٌ للمتَّقين، وسرورٌ للعابدين، وأنسٌ للمؤمنين، ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [سورة يوسف].

إنَّ الله y قد اختار أنبياءه واصطفاهم، وفضَّلهم واجتباهم، وجعلهم للخلق قادةً، وفي الخير قدوةً؛ فبهم عُرفَ اللهُ، وبهم وُحِّد، وبهم عُرِفَ الصِّراط المستقيم، وعلى آثارهم وصَل أهلُ الجنَّة إلى كلِّ نعيمٍ، وفازوا بكلِّ خيرٍ وسعادةٍ في الدُّنيا والآخرة، بل حَظُّ العبد من السَّعادة يكون بحسب حظِّه من الاقتفاء لآثارهم، والسَّير على نهجهم، وترَسُّم خطاهم.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [سورة الأنبياء]، فكمَّلهم الله y بفعل الخيرات، وإقام الصَّلوات، وإيتاء الزَّكاة، والمداومة

على عبادة الله، فكانوا بذلك قدوةً لمن عداهم، فمن اقتدى بهم فاز، ومن ائْتَسَى بهم غنِم.

من كمال الأنبياء: ما ذكره الله عنهم من عظيم صلتهم بالله، وكمال إقبالهم عليه، وقوَّة التجائهم إليه في أحوالهم جميعها، وشؤونهم كلِّها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ] أي: يبادرون إلى الخيرات، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكمِّلونها على الوجه اللَّائق الَّذي ينبغي، ولا يتركون فضيلةً يقدرون عليها إلَّا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدُّنيا والآخرة، ويتعوَّذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضارِّ الدَّارَيْن، وهم راغبون راهبون، لا غافلون لاهُون، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: خاضعين مُتَذَلِّلين مُتَضرِّعين، فما أكملها من حالٍ! وما أحسنها من صلةٍ ومعرفةٍ بالرَّبِّ العظيم، والخالق الجليل! قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ الأنبياءَ كلَّهم سألوا الله ودعَوه كما ذكر الله ذلك في قصَّة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم»[1].

كم هو جميلٌ بالمسلم أن يعرف سِيَرَ الأنبياء وأخبارهم، وكمال تعبُّدهم وتذلُّلهم، وخضوعهم، وخشوعهم، وما وصفهم الله به من الصِّدق الكامل، والأوصاف الكاملة، وما لهم من الفضل والفواضل والإحسان،

---

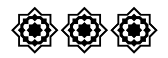
(١) «التَّوسُّل والوسيلة» (ص ٥٥).

ليعظم حظُّه من الاقتداء بهم!! وقد ذكر الله y في مواضع عديدةٍ من القرآن الكريم أمثلةً عديدةً من دعوات النَّبيِّين، وسؤالات المرسلين لربِّ العالمين، وعظيم رجائهم لرحمته، وطمعهم في فضله، وفزعهم إليه في جميع أحوالهم، فذكر دعاء آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ وإسماعيلَ وموسى ويونس وأيُّوب وعيسى وغيرهم من أنبيائه ورسله ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ ليتعلَّم النَّاس صفة الدُّعاء، وأدبه، وكمال الالتجاء والتَّذلُّل لربِّ العالمين، وذكر تعالى إجابته لدعواتهم، وتحقيقه لرغباتهم، وتيسيره لأمورهم مهما عظم الخطب، واشتدَّ الكرب، وكم لقوا من الابتلاء والمكابدة، وعتوِّ الأقوام، فصبروا والتجأوا إلى ربِّهم مؤمِّلين منه الفرَج، راجين منه التَّيسير، فجاءهم فرَج الله ونصره وتأييده، لكمال التجائهم، وحسن رجائهم.

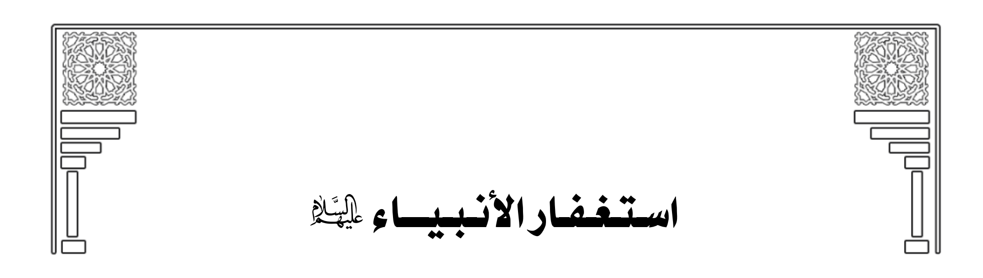
ومن اقتدى بهم في ذلك أعانه كما أعانهم، وأنجاه كما أنجاهم، وتأمَّل ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [سُورَةُ الأَنبيَاءِ]، وهذا وعدٌ وبِشارةٌ لكلِّ مؤمنٍ اقتدى في شدَّته وكربه بيونس عليه السلام في هذه الدَّعوة، روى التِّرمذي عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا**

رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»[1].

هذا، وسيمُرُّ معنا ـ إن شاء الله ـ عرضٌ لدعوات الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، وبيانٌ لما فيها من حِكمٍ وعظاتٍ، سائلين الله العون والتَّسديد، وأن يوفِّقنا لاتِّباعهم، والسَّير على مِنْهاجِهِمْ، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.



(١) «المسند» (١/ ١٧٠)، و«جامع التِّرمذي» (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٨٣).



استغفار الأنبياء عليهم السلام

لقد ذكر الله Y في كتابه القرآن الكريم عن أنبيائه ورسله ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ من كمال تعبُّدهم، وتمام تذلُّلهم، وخضوعهم، واستكانتهم لله ربِّ العالمين، فكانوا في الخير قادةً، وللمهتدين من عباد الله قدوةً وسادةً، ومع هذا التَّمام والكمال فقد كانوا ملازِمين للتَّوبة والاستغفار، والإنابة إلى العزيز الغفَّار.

وقد ذكر الله Y في غير موضعٍ من القرآن عن غير واحدٍ من الأنبياء استغفارهم، وتوبتهم إلى الله Y .

ومن ذلكم ما ذكره الله Y عن نبيِّه آدم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة البقرة]، وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ]، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [سُورَةُ طه].

وذكر عن نوح عليه السلام أنه لما سأل ربَّه وناداه: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، حيث أدركته الشَّفقة على ولده، وقد وعده اللهُ بنجاة أهله، فظنَّ أنَّ الوعد لعموم من آمنَ ومن لم يؤمن، لذلك دعا بهذه الدَّعوة، فقال الله له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، فندم عليه السلام ممَّا صدر منه، وطلب من ربِّه العفو والغفران: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، فهذا استغفارٌ وتوبةٌ منه عليه السلام.

وذكر y استغفار نبيِّه إبراهيم الخليل عليه السلام، فذكر أنَّه قال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [سُورَةُ إِبۡرَاهِيمَ]، وقال:

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة].

وذكر سبحانه استغفار نبيِّه موسى عليه السلام، ومن ذلك قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص]، وقال موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف]، وقال موسى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف]، وقال موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف].

وذكر سبحانه استغفار سليمان عليه السلام **فقال:** ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص].

وذكر سبحانه استغفار داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً

وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة ص].

وقال عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنبياء].

فهذه الآيات مشتملةٌ على توبة الأنبياء واستغفارهم، وعظيم إنابتهم إلى الله y ، قد ذكرها الله عنهم في كتابه في معرض الثَّناء عليهم، وبيان فضلهم، وكمالهم ليتأسَّى بهم النَّاسُ، ويقتدي بهم الخلق، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «والله تعالى قصَّ علينا قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب»[1] اهـ. وكم هو جميلٌ بالمسلم أن يتأمَّل هذا القصص الكريم، والحال العظيم الَّذي عليه هؤلاء الصَّفوة المختارة، أنبياء الله ورسله ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ فيجعلهم قدوةً في لزوم التَّوبة إلى الله، والإنابة إليه، والإكثار من الاستغفار؛ فإنَّ في ذلك رفعةَ الدَّرجات، وتوالي الخيرات، وكثرة العطايا والهبات، فإنَّ الله يحبُّ التَّوَّابين ويحبُّ المتطهِّرين.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٨٠).



دعـــاء آدم عليه السلام

إنَّ من الدَّعوات العظيمة الواردة في القرآن دعاءَ آدمَ عليه السلام أبي البشر، المشتمل على توبته إلى الله، وطلب مغفرته ورحمته، وإقالةِ عثرته؛ حيث كان قد ارتكب ما نهاه الله عنه، ووقع فيما منعه منه، قال الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأعراف].

فهذه خطيئةُ آدم وذنبه الَّذي اقترفه، ولكنَّه سُرْعَانَ ما أناب، واعترف بذنبه، وأقرَّ بخطيئته، وطلب من ربِّه العفو والغفران، وقد ألهمه ربُّه كلماتٍ يقولها، ودعواتٍ يدعو بها، فقَبِل توبته، وأقال عثرته، ورفع درجته، وهداه واجتباه؛ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة البقرة].

وهذه الكلمات الَّتي تلقَّى آدمُ عليه السلام من ربِّه ـ على الصَّحيح من أقوال

أهل العلم ـ هي المبيَّنة في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ].

قال ابن جرير الطَّبري رَحِمَهُ اللهُ: «والَّذي يدلُّ عليه كتاب الله ـ جلَّ ثناؤه ـ أنَّ الكلمات الَّتي تلقَّاهُنَّ آدم من ربِّه هنَّ الكلمات الَّتي أخبر ـ جلَّ ذكره ـ عنه أنَّه قالها متنصِّلًا بقيلها إلى ربِّه، معترفًا بذنبه، وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»[1].

❊ **ومعنى هذه الدَّعوة** أي: قد فعلنا الذَّنب الَّذي نُهينا عنه، وضررنا أنفسنا باقترافه، ووقعنا في سبب الخسران إن لم تغفر لنا بمحو أثر الذَّنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التَّوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا، فغفر الله لهما ذلك كما قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [سُورَةُ طه]، وذِكْرُ هذا الأمرِ عنه وبيانُ هذه التَّوبةِ منه فيه تعليمٌ لذرِّيَّته إذا وقعوا في الذَّنب والخطيئة سبيلَ الرُّجوع والأوبة، وطريقَ الإنابة والتَّوبة.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا الخبر الَّذي أخبر الله عن آدم من قيله الَّذي لقَّاه اللهُ إيَّاه، فقاله تائبًا إليه من خطيئته تعريفٌ منه ـ جلَّ ذكره ـ جميعَ المخاطَبين بكتابه كيفيَّة التَّوبة إليه من الذُّنوب...، وأنَّ خلاصَهم ممَّا هم عليه مقيمون من الضَّلالة نظيرُ خلاص أبيهم آدم من خطيئته»[2].

---

(١) «تفسير الطَّبري» (١/ ٥٨٦).

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ٥٨٧).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا اعترافٌ ورجوعٌ إلى الإنابة، وتذلُّلٌ وخضوعٌ واستكانةٌ، وافتقارٌ إليه تعالى في السَّاعة الرَّاهنة، وهذا السِّرُّ ما سرى في أحدٍ من ذرِّيَّته إلَّا كانت عاقبتُه إلى خيرٍ في دنياه وأخراه»[١].

هذا، وإنَّ الخطأ واقعٌ من بني آدم لا محالة، وكلُّ بني آدم خطَّاءٌ، ولكن كم هو عظيمٌ من الإنسان أن يبادر إلى الخلاص من مغبَّة الإثم، وأن يسارع إلى الفِكاك من عاقبة الخطأ، متشبِّهًا بأبيه آدم ومؤتسيًا به.

روى الإمام أحمد في «الزُّهد» وأبو الشَّيخ عن قتادة قال: «إنَّ المؤمن ليستحي ربَّه من الذَّنب إذا وقع به، ثمَّ يعلم ـ بحمد الله ـ أين المخرج، يعلم أنَّ المخرج في الاستغفار والتَّوبة إلى الله y ، فلا يحتشِمنَّ رجلٌ من التَّوبة؛ فإنَّه لولا التَّوبةُ لم يخْلص أحدٌ من عباد الله، وبالتَّوبة أدرك اللهُ أباكم الرَّئيسَ في الخير من الذَّنب حين وقع به»[٢].

ثمَّ إنَّ أعظم الخسران، وأشدَّ الحرمان أن يترك العبدُ التَّأسِّي بأبيه، ثمَّ يتأسَّى بعدوِّ أبيه، وعدوِّ بنيه إبليسَ الطَّريد، فإنَّ آدم لمَّا وقع في الذَّنب اعترف به وأقرَّ، وسأل الله المغفرة، وأمَّا إبليسُ فإنَّه عصى وأصرَّ، ولم يقِرَّ بالخطأ، ومن تشبَّه بآدم سعِد مثله، ومن تشبَّه بإبليس شقي مثله.

وقد نقل القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» عن بعض أهل العلم أنَّه قال: «إنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ سعد بخمسة أشياء: اعترف بالذَّنب، وندم عليه، ولام نفسه،

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ١٨٤).

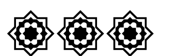
(٢) أورده السُّيوطي في: «الدُّر المنثور» (٣/ ٤٣٣).

وسارع إلى التَّوبة، ولم يقنط من الرَّحمة.

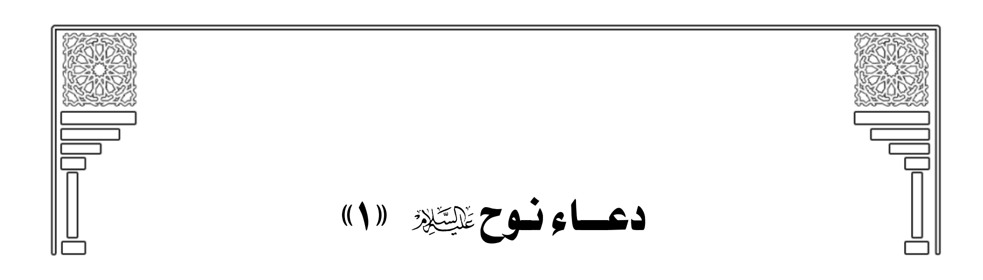
وشقي إبليسُ بخمسة أشياء: لم يقِرَّ بالذَّنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، بل أضاف إلى ربِّه فلم يتُب، وقنط من الرَّحمة»[1] اهـ.

فمن أشبَه آدم بالاعتراف، وسؤال المغفرة، والنَّدم والإقلاع إذا صدرت منه الذُّنوب اجتباه ربُّه وهداه، ومن أشبه إبليس إذا صدر منه الذَّنب لا يزال يزداد من المعاصي؛ فإنَّه لا يزداد من الله إلَّا بُعْدًا، وقد قال الله تعالى في السِّياق نفسه مُحذِّرًا الذُّرِّيَّة: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ].

أعاذنا الله منه، وحمانا من شرِّه، ووفَّقنا للتَّوبة النَّصوح، وحسن الإنابة، وألحقنا بأبينا آدم، وبالصَّالحين من عباده، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.



(١) «تفسير القاسمي» (٧/ ٢٦٤٣).



دعـــاء نـوح عليه السلام «١»

لقد ذكر الله Y دعواتِ نبيِّه نوحٍ عليه السلام، وذكر قصَّته وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب والطُّوفان، وكيف أنجاه وأصحابَ السَّفينة في غير موضعٍ من كتابه العزيز، وكان عليه السلام قد أرسله الله تعالى لَمَّا عُبِدَتْ الأصنام والطَّواغيت، وشرع النَّاس في الضَّلالة والكفر، فبعثه الله رحمةً للعباد، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الأعراف]، لقد تلقَّى قومُ نوحٍ عليه السلام دعوة نبيِّهم بالصُّدود والإعراض، والكِبْر والأنَفة، والمكر والكيد، والعُتوِّ والتَّكبُّر، والتَّهديد لنبيِّهم

بالرَّجم والقتل، ولَمَّا طال مُقام نبيِّ الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا، حيث مكث فيهم ألف سنةٍ إلَّا خمسين عامًا، وكلَّما كرَّر عليهم الدَّعوة طَوَالَ هذه المدَّة صمَّموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشَّديد، وحينئذٍ دعا عليهم عليه السلام دعوةً استجابها الله منه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ [سورة الشعراء]، أي: فاحكم بيني وبينهم حكمًا من عندك تهلك به المبطل، وتنتقم ممَّن كفر بك، وجحد توحيدك، وكذَّب رسولك، وسأل الله أن ينجِّيه ومن معه من أهل الإيمان.

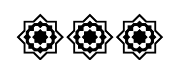
وقد بيَّن الله تعالى أنَّه استجاب دعاء عبده ونبيِّه نوحٍ عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)﴾ [سورة الشعراء]، وقال الله تعالى في موضعٍ آخر في بيان دعوة نوحٍ عليه السلام على قومه لَمَّا كذَّبوا رسالته، وبيان استجابة الله تعالى لدعائه بإهلاك قومه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾ [سورة القمر].

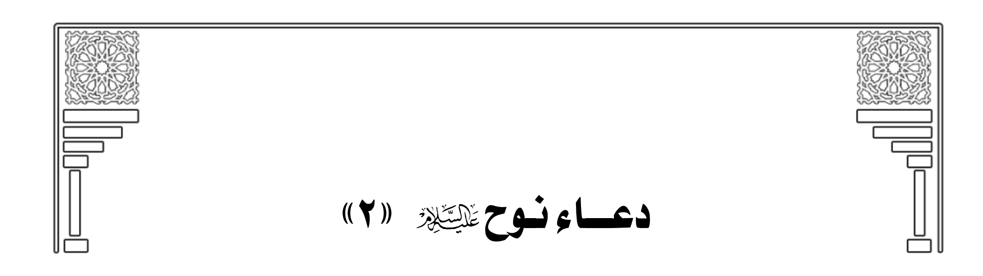
ونوحٌ عليه السلام إنَّما دعا بهذه الدَّعوة لَمَّا يئس من صلاح قومه وفلاحهم، ورأى أنَّهم لا خير فيهم، وأنَّهم توصَّلوا إلى أذيَّته وتكذيبه بكلِّ طريقٍ من

فِعالٍ ومقالٍ، ودعوتُهُ عليهم إنَّما كانت غضبًا لله، فلبَّى سبحانه دعوته وأجاب طَلِبَتَهُ، ولَنِعْمَ المجيبُ هو سبحانه والمانُّ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ].

ولَمَّا أراد سبحانه إنجاء نوحٍ والمؤمنين، وإهلاك قومِهِ أمره تعالى أن يصنعَ الفلك، وهي السَّفينةُ العظيمة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ]، وعَمِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على صنع السَّفينة، وكان قومه يمرُّون به وهو يصنعها فيسخرون منه، ويهزؤون من صنيعه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨﴾ [سُورَةُ هُودٍ] أي: نحن الَّذين نسخر منكم، ونتعجَّب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الَّذي يقتضي وقوعَ العذابِ بكم وحلوله عليكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، وقد كانت سجيَّتُهم الكفرَ الغليظَ، والعنادَ البالغَ، والعُتُوَّ والطُّغيان، وحلَّت العقوبة؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، فنبعت الأرض بالماء من سائر أرجائها، وارتفع الماء على أعالي الجبال، وعمَّ جميع الأرض طولَها وعرضَها، سهلَها وحَزْنها، قِفارَها

ورمالَها، ولم يبق على وجه الأرض ممَّن كان بها من الأحياء أحدٌ لا صغيرٌ، ولا كبيرٌ، ولمَّا هلكوا أجمعين أَذِنَ اللهُ Y للأرض بابتلاع الماء، وللسَّماء بالتَّوقُّف عن المطر، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، وأمره سبحانه أن يهبط بسلامٍ ومن معه لمَّا نضب الماء الَّذي على الأرض، وأمكن السَّعيُ فيها، والاستقرارُ عليها، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، فهذه استجابةُ الله لدعوة نبيِّه المعصوم، وتنفيذٌ لما سبق في قدره المحتوم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ].





دعاء نوح عليه السلام «٢»

لقد مرَّ بنا دعوة نبيِّ الله نوحٍ عليه السلام، وسُؤالُهُ ربَّه سبحانه النَّجاة من القوم الظَّالمين، ودعاؤه عليهم بالهلاك لَمَّا عَتَوْا وتكبَّروا وتجبَّروا، واستجابةُ الله له بأن أهلكهم بالطُّوفان، وأنجى نوحًا ومن معه في الفلك المشحون.

وقد كان عليه السلام عبدًا شكورًا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [سورة الإسراء]، وفي هذا تنويهٌ بالثَّناء عليه بقيامه بشكر الله واتِّصافه بذلك، وفيه حثٌّ لذرِّيَّته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكَّروا نعمة الله عليهم؛ إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

ومن شكرِ نوحٍ عليه السلام ما ورد في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ [سورة المؤمنون]، وهذا فيه تعليمٌ من الله سبحانه لنبيِّه نوح عليه السلام ولمن معه من المؤمنين أن يقولوا هذا الدُّعاء شكرًا له سبحانه، وحمدًا على نجاتهم من القوم الظَّالمين، وسؤالًا منه سبحانه أن ييسِّر لهم منزلًا مباركًا.

قال ابن كثيرٍ رحمه الله: «أمره أن يحمد ربَّه على ما سخَّر له من هذه السَّفينة

فنجَّاه بها، وفتح بينه وبين قومه، وأقرَّ عينه ممَّن خالفه وكذَّبه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سُورَةُ الزُّخۡرُفِ]، وهكذا يُؤْمَرُ بالدُّعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة، وأن تكون عاقبتها محمودةً، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِى مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِى مُخۡرَجَ صِدۡقٍ وَٱجۡعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [سُورَةُ الإِسۡرَاءِ]»[1] اهـ، وقد امتثل نوحٌ عَلَيۡهِ السَّلَامُ هذه الوصيَّة فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه كما حكى الله عنه بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [سُورَةُ هُودٍ] أي: على اسم الله ابتداءُ سيرها وانتهاؤه.

ودعاءُ نوحٍ عَلَيۡهِ السَّلَامُ في هذا المقام قد استجابه الله كما قال سبحانه: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سُورَةُ هُودٍ] أي: اهْبِطْ سالمًا مباركًا عليك وعلى أممٍ ممَّن سَيُولَدُ بَعْدُ، أي: من أولادك؛ فإنَّ الله لم يجعل لأحدٍ ممَّن كان معه من المؤمنين نسلًا ولا عقبًا سوى نوحٍ عَلَيۡهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ]، وفي هذا السِّياق المبارك الَّذي ذكر الله ـ سبحانه

(١) «البداية والنِّهاية» (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

وتعالى ـ عن عبده الشَّكور ونبيِّه الذَّكور نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فوائدُ عظيمةٌ، ومنافعُ جليلةٌ، ينبغي للمسلم أن يتنبَّه لها، وأن يحرص على التزامها، قال العلَّامة عبد الرَّحمن بن سعدي وهو بصدد ذكر الفوائد المُسْتَنْبَطَة من قصَّة نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ومنها: ـ أي: الفوائد ـ أنَّه ينبغي الاستعانة بالله، وأن يُذْكَرَ اسمُه عند الرُّكوب والنُّزول، وفي جميع التَّقلُّبات والحركات، وحمدُ الله والإكثار من ذكره عند النِّعم، لا سيَّما النَّجاة من الكربات والمشقَّات، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون]، وأنَّه ينبغي أيضًا الدُّعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة، كالمنازل في إقامات السَّفر وغيره، والمنازل المستقرَّة كالمساكن والدُّور، لقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون]، وفي ذلك كلِّه من اصطحاب ذكر الله، ومن القوَّة على الحركات والسَّكنات، ومن قوَّة الثِّقة بالله، ومن نزول بركة الله الَّتي [هي] خير ما صحبت العبدَ في أحواله كلِّها؛ ما لا غنى للعبد عنه طرفة عينٍ»[1].

ومن يتأمَّلْ سنَّة نبيِّنا الكريم ﷺ يجد فيها هذه المعاني العظيمة، والأحوال الكاملة والهدي القويم، في ركوبه وتنقُّلاته وذهابه ورواحه.

ففي «سنن أبي داود» و«التِّرمذي» وغيرهما عن علي بن ربيعة قال:

---

(١) «تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن» (ص١١١).

«شهدتُّ عليًّا ﷺ وأُتي بدابَّةٍ ليركبها، فلمَّا وضع رجله في الرِّكاب قال: بسم الله، فلمَّا استوى على ظهرها قال: الحمد لله ، ثمَّ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، ثمَّ قال: الحمد لله ثلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ قال: الله أكبر ثلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ قال: سبحانك إنِّي ظلمت نفسي، فاغفر لي؛ فإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا أنت، ثمَّ ضحك، فقيل: يا أمير المؤمنين من أيِّ شيءٍ ضحكتَ؟ قال: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ فعل كما فعلْتُ، ثمَّ ضحك، فقلت: يا رسول الله من أيِّ شيءٍ ضحكتَ؟ قال: «**إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**»»[1].

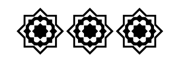
وفي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفرٍ كبَّر ثلاثًا، ثمَّ قال: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [سورة الزخرف]، **اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ**»، وإذا رجع قالهنَّ وزاد فيهنَّ: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»»[2].

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٠٢)، و«جامع التِّرمذي» (٣٤٤٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٤٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١٣٤٢).

وكلُّ هذا ذكرٌ لله، واستعانةٌ به، والتجاءٌ إليه، واعتمادٌ عليه، وهو هدي نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، وهدي النَّبيِّين من قبله، رزقنا الله الاقتداء بهم، والسَّير على نهجهم، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.





دعاء إبراهيم عليه السلام (١)

إنَّ من دعوات الأنبياء المذكورة في القرآن دعوةَ إبراهيم الخليل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لمكَّة بأن تكون بلدًا آمنًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة إبراهيم].

ففي الآية الأولى قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وفي الآية الثَّانية قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، فنكَّر البلد في الأولى وعرَّفه في الثَّانية.

وقد قيل: إنَّ إبراهيم عليه السلام دعا بهذه الدَّعوة مرَّتين:

مرَّةً قبل بناء البيت، وناسب التَّنكير في هذا الموضع، ومرَّةً بعد بنائه واستقرار أهله به، فناسب التَّعريف، ولهذا قال في آخر الدُّعاء في موضعه

الثَّاني: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سُورَةُ إبراهيم].

ومعنى قوله: ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمنٍ، كاملًا في الأمن، يأمن فيه أهلُه من الخوف والرُّعب.

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ إنَّما سأل ذلك؛ لأنَّ مكَّة لم يَكُنْ بها زرعٌ ولا ثمرٌ ولا ماءٌ.

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا لمكَّة ولأهلها بالأمن ورَغَدِ العيش، مع قلَّة المياه فيها والأشجار والزُّروع والثِّمار، وأن تكون حرَمًا مُحرَّمًا، وأمنًا محتَّمًا، فاستجاب الله تعالى لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءه وآتاه سُؤْلَه، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا دعاءٌ دعا به إبراهيم فاستجاب له دعاءه، فجعله بلدًا آمنًا»[1].

قال الله تعالى مُمْتنًّا على أهل مكَّة بهذه المنَّة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سُورَةُ القَصَصِ]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سُورَةُ العَنكَبُوتِ]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البَقَرَة : ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عِمرَان : ٩٧].

وقد بيَّن أهل العلم ـ رحمهم الله تعالى ـ أنَّ الله y حرَّم مكَّة شرعًا وقدرًا؛

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٢٩).

فحرَّم مكَّة في الشَّرع في آيٍ عديدةٍ من القرآن، ويسَّر من أسباب حُرمتها قدرًا ما هو معلومٌ.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن الآيات البيِّنات فيها أنَّ من دخله كان آمنًا شرعًا وقدرًا، فالشَّرع قد أمر اللهُ، ورسولُه إبراهيمُ، ثمَّ رسولُه محمَّدٌ ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتَّى إنَّ التَّحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها...، وأمَّا تأمينها قدرًا؛ فلأنَّ الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النُّفوس ـ حتَّى نفوس المشركين به الكافرين بربِّهم ـ احترامه، حتَّى إنَّ الواحد منهم ـ مع شدَّة حميَّتهم ونَعرتهم وعدم احتمالهم للضَّيم ـ يجد أحدُهم قاتلَ أبيه في الحرم فلا يَهيجُه، ومِن جَعلِه حرمًا: أنَّ كل من أراده بسوءٍ فلا بدَّ أن يعاقبه عقوبةً عاجلةً، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم»[(١)].

وممَّا يدلُّ على عظم شأن تحريم مكَّة، وخطورة محاولة العبَث بأمنها:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سُورَةُ الحَجِّ].

عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **في معنى الآية قال:** «هو أن تستحلَّ من الحرم ما حرَّم اللهُ عليك من لسانٍ أو قتلٍ، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك،

(١) «تفسير السِّعدي» (ص١٤٦).

فإذا فعل ذلك فقد وجب له عذابٌ أليمٌ»[١].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه **قال:** «لو أنَّ رجلًا همَّ فيه بسيِّئةٍ وهو بعَدَنِ أَبْيَنَ؛ لأذاقه الله y عذابًا أليمًا»[٢].

والآثار في هذا المعنى عن السَّلف كثيرةٌ، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «وهذا من خصوصيَّة الحرم؛ أنَّه يُعاقَبُ البادي فيه الشَّرَّ إذا كان عازمًا عليه، وإن لم يوقِعْه»[٣].

وقال السِّعدي رحمه الله: «والحال أنَّ هذا المسجد الحرام من حرمته واحترامه وعظمته أنَّ مَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلمٍ نذِقْه من عذابٍ أليمٍ، فمجرَّد إرادة الظُّلم والإلحاد في الحرم موجِبٌ للعذاب، وإن كان غيره لا يُعَاقَبُ العبد عليه إلَّا بعمل الظُّلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظُّلم من الكفر والشِّرك والصَّدِّ عن سبيله، ومنع من يريده بزيارةٍ، فما ظنُّكم أن يفعل الله بهم؟! وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم، وشدَّة تعظيمه، والتَّحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها»[٤].

ولذا فإنَّ من سعى في زَعزَعة أمن بلد الله الحرام، وانتهك حرمته، وظلم عباد الله فيه فقد ارتكب جرمًا عظيمًا، ومنكرًا شنيعًا، وقد توعَّد الله

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٠٧).

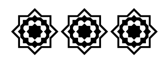
(٢) «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٠٨).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠٧).

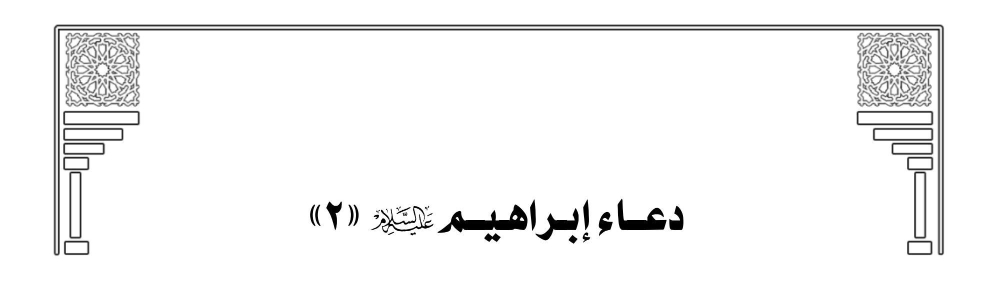
(٤) «تفسير السعدي» (ص٥٣٦).

من همَّ بشيءٍ من ذلك بأن يُذِيقَهُ العذابَ الأليمَ، فكيف بمن يَفْعَلُ ذلك؟!
والله ـ جلَّ وعلا ـ جعل مكَّة بلدًا حرامًا إلى يوم القيامة، كما أنَّ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرامٌ إلى يوم القيامة، وقد جاء في خطبة النَّبيِّ ﷺ في حجَّة الوداع: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**»[1].

وإنَّا لنسأل الله الكريم أن يحفظ على المسلمين في بلاد الحرمين، وسائر بلاد المسلمين أمنَهم وإيمانهم، وأن يصرف عنهم الفتن والشُّرور، وأن يرُدَّ كيد من أراد الإخلال بأمنه في نحره، وأن يفضحه بين خلقه، وأن يسلِّم المسلمين من شرِّه، إنَّه سبحانه سميعٌ مجيبٌ.



(١)أخرجه البخاري (١٧٣٩)، ومسلم (١٦٧٩)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.



دعاء إبراهيم عليه السلام «٢»

إنَّ من دعوات الأنبياء العظيمة الوارد ذكرها في القرآن الكريم ما جاء في سياق قصَّة إبراهيم الخليل مع قومه، ودعوته لهم إلى توحيد الله وإخلاص الدِّين له، والبراءة من المعبودات الباطلة الَّتي لا تملك لنفسها نفعًا أو ضرًّا، فضلًا عن أن تملك شيئًا من ذلك لغيرها، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ].

فهذا السِّياق المبارك فيه إخبارٌ من الله تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وعن دعوته لقومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، مع بيان بطلان المعبودات الَّتي اتَّخذها قومه من دون الله تعالى،

وأنَّه عليه السلام متبرِّئ منها كلِّها، سوى المعبود الحقِّ الَّذي هو ربُّ العالمين، وذكر جملةً من نعوته الدَّالَّة على عظمته وجلاله وكماله، وأنَّه وحده المستحقُّ للعبادة لا تلك المعبودات الباطلة، الَّتي لا تسمع إذا دُعِيَت، ولا تنفع ولا تضرُّ.

بعد هذا انتقل إبراهيم عليه السلام من وصف ربِّه بجلائل الصِّفات، وعظيم النُّعوت إلى دعائه وسؤاله وطلبه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ...﴾ إلى آخر الدَّعوات المباركة الَّتي ذكرها، وهي دعواتٌ عظيمةٌ مشتملةٌ على مطالبَ جليلةٍ من المصالح الدِّينيَّة والدُّنيويَّة والأخرويَّة.

فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: علمًا كثيرًا أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام.

وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: اجعلني مع الصَّالحين في الدُّنيا والآخرة، وألحِقني بمن قبلي من النَّبيِّين في المنزلة والدَّرجة.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: اجعل لي في النَّاس ذكرًا جميلًا، وثناءً حسنًا باقيًا في من يجيء من القرون بعدي.

قال ابن زيدٍ رحمه الله: «اللِّسان الصِّدق: الذِّكر الصِّدق، والثَّناء الصَّالح، والذِّكر الصَّالح في الآخِرين من النَّاس من الأمم»[1].

قال أهل العلم: وقد أجاب الله دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، «فوهب له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٩٤).

وجعله محبوبًا مقبولًا معظَّمًا، مُثْنىً عليه في جميع الملل في جميع الأوقات»[1].

وهذا كما قال الله y: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ العَنكَبُوتِ].

وقد أخذ أهل العلم من هذه الدعوة الترغيب في العمل الصالح الَّذي يكسبُ العبدُ به الثناء الحسن ويورثه الذكر الجميل، إذ هو الحياة الثانية كما قيل:

قد مات قومٌ وهم في النَّاس أحياء

أي: بذكرهم الطيِّب، وسيرتهم العطرة.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: ممَّن تعطيه الجنَّة، وتمنُّ عليه بدخولها، وقد أجاب الله دعوته فرفع منزلته في جنَّات النَّعيم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: أَجِرْنِي يا الله من الخزي يوم القيامة، يوم يُبْعَثُ الخلائقُ أوَّلُهم وآخرُهم، وأَسْعِدْني في ذلك اليوم العظيم الَّذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بنونَ، إلَّا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ، فهذا الَّذي ينفع عندك وينجو به العبدُ من عقابك، وينال به كريم الثَّواب، وجميل المآب.

(١) «تفسير السعدي» (ص٦٩٤).

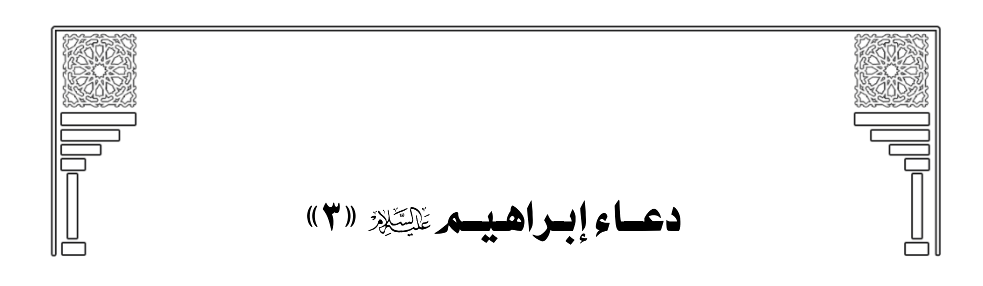
والقلب السَّليم هو الَّذي سلِم من الشِّرك والشَّكِّ، ومحبَّة الشَّرِّ، والإصرار على البدعة والذَّنب، ويلزم من سلامته ممَّا ذُكِرَ اتِّصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين، ومحبَّة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبَّته تابعةً لمحبَّة الله، وهواه تبعًا لما جاء عن الله.

قال العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «والقلب السَّليم هو الَّذي سلم من الشِّرك، والغِلِّ، والحقد والحسد، والشُّحِّ، والكِبر، وحبِّ الدُّنيا والرِّياسة، فسلِم من كلِّ آفةٍ تُبعِده من الله، وسلم من كلِّ شبهةٍ تعارض خبره، ومن كلِّ شهوةٍ تعارض أمره، وسلِم من كلِّ إرادةٍ تزاحم مُرَادَه، وسلِم من كلِّ قاطعٍ يقطع عن الله؛ فهذا القلب السَّليم في جنَّةٍ معجَّلةٍ في الدُّنيا، وفي جنَّةٍ في البرزخ، وفي جنَّةٍ يوم المعاد، ولا تتمُّ له سلامته مطلقًا حتَّى يسلم من خمسة أشياء: من شركٍ يناقض التَّوحيد، وبدعةٍ تخالف السُّنَّة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذِّكر، وهوًى يناقض التَّجريد والإخلاص، وهذه الخمسةُ حُجُبٌ عن الله، وتحت كلِّ واحدٍ منها أنواعٌ كثيرةٌ تتضمَّن أفرادًا لا تنحصر»[1].

هذا، وإنَّا لنسأل الله الكريمَ أن يُلْحِقَنَا بالصَّالحين من عباده، وأن يجعلنا من ورثة جنَّة النَّعيم، وأن لا يخزينا يوم يبعثون، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ].

---

(١) «الجواب الكافي» لابن القيِّم (ص١٤٣).



دعـاء إبـراهيـم عليه السلام «٣»

إنَّ من دعوات الأنبياء العظيمة الواردة في القرآن الكريم ما ذكره الله y ، عن نبيِّه إبراهيم عليه السلام من سؤاله ربَّه y أن يهبه ولدًا صالحًا، إذ الولد الصَّالح نعمةٌ في الحياة عظيمةٌ يهَبها الله سبحانه لمن شاء من عباده، ولهذا كان دأب الصَّالحين سؤالَ الله تعالى الوَلَدَ الصَّالح الَّذي هو قرَّة عين العبد، وسَلوة قلبه، وزينة حياته.

وقد ذكر الله في كتابه أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قال في دعائه ومناجاته لربِّه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ].

قال الإمام الطَّبري رحمه الله: «وهذه مسألة إبراهيم ربَّه أن يرزقه ولدًا صالحًا، يقول: يا ربِّ هبْ لي منك ولدًا يكون من الصَّالحين الَّذين يطيعونك ولا يعصونك، ويصلحون في الأرض ولا يفسدون»[١]، وقال ابن كثيرٍ رحمه الله: «يعني: أولادًا مطيعين عوضًا من قومه وعشيرته الَّذين فارقهم»[٢].

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٧٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٢ ـ ٢٣).

وقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي﴾ فيه الإيمان بأنَّ وجود الولد وصلاحه منَّةٌ ربَّانيَّةٌ، وهِبَةٌ من الله y المتفرِّد بالتَّصرُّف والتَّدبير في هذا الكون لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٥٠﴾ [سُورَةُ الشُّورَىٰ].

فالأمر لله من قبلُ ومن بعدُ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكُنْ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لا مانع لما أعطى ولا مُعْطِيَ لما منع، وهو ـ جلَّ وعلا ـ يُعْطِي من يشاء من خلقه من الأولاد، ويمنع من شاء، وهو العليم القدير.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ أي: يرزقه بناتٍ فقط ليس معهنَّ ذكورٌ، وقوله: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي: يرزقه البنين فقط ليس معهم إناثٌ، وقوله: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾ أي: يجمع لمن شاء الذُّكور والإناث في العطاء، وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يُولَدُ له أصلًا.

فقسَّم سبحانه حالَ الزَّوجَيْن إلى أربعة أقسامٍ: منهم من يُعْطِيه البناتِ، **ومنهم** من يُعطيه البنين، **ومنهم** من يُعْطِيه من النَّوعين ذكورًا وإناثًا، **ومنهم** من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيمًا لا نَسْل له، ولا يُولَدُ له.

وقد ذكر بعضُ المفسِّرين مثلًا للآية ممَّا كان للأنبياء عليهم السلام، وإن كانت الأقسام موجودةً في سائر النَّاس بأنَّ قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ كنبيِّ الله لوطٍ عليه السلام كان له بناتٌ، ولم يكن له ولدٌ ذكرٌ، وقوله: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ

ﱡﭐ ﱏ ﱠ كنبيِّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان له بنون، ولم تكن له بنتٌ أنثى، وقوله: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾ كخاتم النَّبيِّين محمَّدٍ ﷺ وُلِد له بنون وبناتٌ، وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ كنبيِّ الله يحيى ونبيِّه عيسى ـ عليهما السَّلام ـ لم يكن لهما ولدٌ، ولا زوجةٌ(١).

وعودًا على دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه أن يهبه من الصَّالحين؛ أي: أولادًا برَرةً مطيعين؛ فإنَّ الله قد استجاب لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءه كما قال سبحانه عقب الآية السَّابقة مباشرةً: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [سُورَةُ الصَّافَّات]، وهذا فيه دلالةٌ على أنَّه بُشِّرَ بابنٍ ذكَرٍ، وأنَّه يبقى حتَّى ينتهي في السِّنِّ، ويوصف بالحِلم، وهذا الابن الَّذي بشِّر به هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا الغلام هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّه أوَّل ولدٍ بشِّر به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أكبر من إسحاق باتِّفاق المسلمين، وأهل الكتاب»(٢).

ولَمَّا كانت هبة الولد الصَّالح منَّةً عظيمةً من الله تعالى، ونعمةً جليلةً من نعمه، كان شكرُها وحمدُ الرَّبِّ تعالى عليها واجبًا على العبد، وقد وفَّى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا المقام، كما ذكر الله تعالى عنه ذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [سُورَةُ إِبۡرَاهِيمَ].

---

(١) انظر: «تفسير أبي المظفَّر السَّمعاني» (٥/ ٨٦)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٧/ ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٣).

أي: الحمد لله الَّذي رزقني على كِبَرٍ من السِّنِّ ولدًا؛ إسماعيل وإسحاق، فهبَتُهم من أكبر النِّعم، وكونها على الكبر في حال اليأس من الأولاد نعمةٌ أخرى، وكونهما أنبياء صالحين أجلُّ وأفضل، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: لقَريب الإجابة ممَّن دعاه، وقد دعوته فلم يُخيِّبْ رجائي.

ومن الفوائد العظيمة المستفادة من هذا السِّياق: «أنَّ من نعمة الله على العبد هبةَ الأولاد الصَّالحين، وأنَّ عليه في ذلك أن يحمد الله، ويدعو الله لذُرِّيَّته كما فعل الخليل ﷺ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [سُورَةُ إبرَاهِيمَ]، وقال ـ جلَّ ذكره ـ في الثَّناء عمومًا على من يدعو الله بصلاح ذُرِّيَّته: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْقَافِ]؛ فإنَّ العبد إذا مات انقطع عمله إلَّا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»[(١)].

ونسأل الله أن يمنَّ علينا بالذُّرِّيَّة الصَّالحة، وأن يهدي أبناء المسلمين وبناتهم، إنَّه سبحانه سميعٌ مجيبٌ.

۞۞۞

(١) «تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن» لابن سعدي (ص ١٢٢ ـ ١٢٣).



دعاء إبراهيم عليه السلام «٤»

إنَّ من الدَّعوات الجوامع الواردة في القرآن ما ذكره الله عن نبيِّه وخليله إبراهيمَ وابنه إسماعيل عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

وقد اشتملت هذه الآيات على جملةٍ من المطالب الَّتي دعا بها إبراهيم وابنُه إسماعيل عليهما السلام لأنفسهما ولذُرِّيَّتهما.

وأوَّل ذلك: قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهذا دعاءٌ مباركٌ قالاه في حال بنائهما البيت، كما جاء عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «قاما يرفعان القواعد من البيت ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»، فهما في عملٍ صالحٍ جليلٍ، ويسألان ربَّهما أن يتقبَّل منهما ما هما فيه من الطَّاعة العظيمة، والسَّعي المشكور.

وتأمَّلْ حال إمام الحنفاء، وقدوة الموحِّدين عليه السلام؛ يبني بيتَ الله y وبأمره سبحانه، وهو خائفٌ أن لا يُقْبَلَ.

جاء عن وُهَيْب بن الوَرْد أنَّه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، ثمَّ بكى، ويقول: «يا خليلَ الرَّحمن! ترفع قوائم بيت الرَّحمن وأنت مُشفِقٌ أن لا يُتقبَّل منك»، أورده الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله في «تفسيره» وقال: «وهذا كما حكى الله تعالى من حال المؤمنين المخلصين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي: يُعطُون ما أَعْطَوْا من الصَّدقات والنَّفقات والقربات، ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، أي: خائفةٌ أن لا يتقبَّل منهم، كما جاء به الحديث الصَّحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم».

يشير إلى ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: «قلتُ: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: أهو الرَّجل يزني ويشرب الخمر؟ قال: «**لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ـ أو: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ـ وَلَكِنَّه الرَّجُلُ يَصُومُ، وَيُصَلِّي، وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ**»[(١)].

والثَّاني: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: اجعلنا مستسلِمَيْنِ لأمرك، خاضعَيْنِ لطاعتك، منقادَيْنِ لحُكمك، وفي هذا سؤالُ الثَّبات على الطَّاعة، والدَّوام على الإسلام، وفي هذا دليلٌ واضحٌ على حاجة العبد إلى التَّوفيق والتَّثبيت

(١) «مسند أحمد» (٦/ ٢٠٥)، ورواه التِّرمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وقوَّاه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢).

من ربِّه y في الدَّوام على الإسلام والثَّبات عليه، ولهذا جاء في الحديث عن أمِّ المؤمنين أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: «كان أكثر دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، قالت: فقلتُ: يا رسول الله ما لأكثر دعائك: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»؟ قال: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**» أخرجه الترمذي(١).

الثَّالث: قولهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ أي: واجعل من أولادنا أمَّةً مسلمةً لك، قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «وهذا الدُّعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، كما أخبر الله تعالى عن عباده المتَّقين المؤمنين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [سورة الفرقان]، وهذا القَدْرُ مرغوبٌ فيه شرعًا؛ فإنَّ مِن تمام محبَّة عبادة الله تعالى أنَّه يحبُّ أن يكون من صلبه من يعبدُ اللهَ وحده لا شريك له، ولهذا لمَّا قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [سورة البقرة]»(٢).

الرَّابع: قولهما: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: وعلِّمنا وعرِّفنا مناسكنا، أي:

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٣٠٢)، و«جامع التِّرمذي» (٣٥٢٢)، وصحَّحه بشواهده الألباني في «الصَّحيحة» (٢٠٩١).

(٢) «تفسير ابن كثيرٍ» (١/ ٢٦٧).

شرائع ديننا، وأعلام حجِّنا.

الخامس: قولهما: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهذا دعاءٌ منه بالتَّوبة، والتَّوبة هي الأوبة إلى الله، والرُّجوع إليه بالنَّدم، والإقلاع، والعزم على ترك العود.

قال العلَّامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولمَّا كان العبد ـ مهما كان ـ لا بدَّ أن يعتريه التَّقصير، ويحتاج إلى التَّوبة قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾»[1].

السَّادس: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

وهذا الدُّعاء قيل: إنَّه للأمَّة المسلمة من ذريَّة إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وقيل: إنَّه إخبارٌ عن تمام دعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأهل مكَّة أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة، لتتمَّ عليهم النِّعمتان الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ، وعلى هذا القول الثَّاني يكون دعاؤهما هذا لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ خاصَّةً؛ إذ لم يبعث الله تعالى في أهل مكَّة غير نبيِّنا محمَّد ﷺ[2].

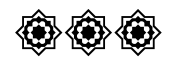
---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٠).

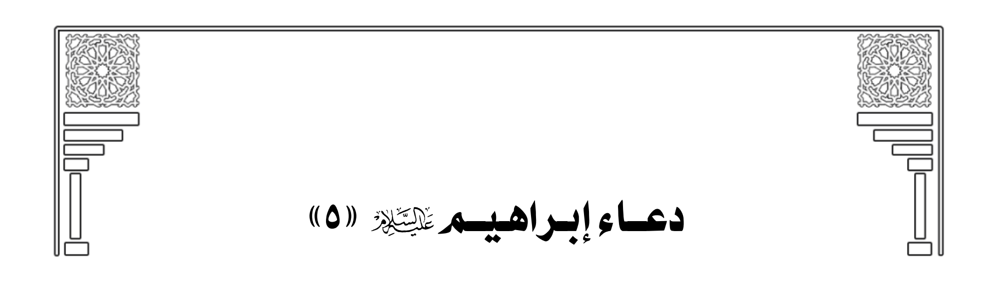
(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٧٢).

ولا اختلاف في الحقيقة بين القولين في المراد بهذا الدُّعاء؛ لأنَّ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل من ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السلام، ولهذا كان النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ يقول: «**أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**» رواه أحمد، والحاكم[1] وغيرهما، والمراد هذه الدَّعوة، كما ذكر ذلك أهل العلم.

والمراد بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن الكريم، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: السُّنَّة، وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: بالإخلاص والطَّاعة، والانقياد لله y .



(١) «مسند أحمد» (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، و«مستدرك الحاكم» (٢/ ٤١٨، ٦٠٠) عن العرباض بن سارية السُّلَمِيِّ رضي الله عنه، ورواه أحمد (٥/ ٢٦٢) عن أبي أُمامة الباهِلِيِّ رضي الله عنه، والحاكم (٢/ ٦٠٠) عن أصحاب رسول الله ﷺ، وصحَّحه بشواهده الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٥٤٥، ١٥٤٦).



دعاء إبراهيم عليه السلام (٥)

ومن دعوات إبراهيم الخليل عليه السلام ما ورد في السُّورة المعروفة باسمه عليه السلام سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)﴾ [سورة إبراهيم]، فهذه دعواتٌ عظيمةٌ، ومطالب جليلةٌ سألها إبراهيم عليه السلام ربَّه y لنفسه ولذرِّيَّته، وقد انتظمت مقاصدَ جليلةً، وسؤالاتٍ عظيمةً، يجدر بالمسلم أن يقف عندها، وأن يتأمَّلها.

قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ مضى الكلام على هذه الدَّعوة العظيمة المشتملة على سؤاله عليه السلام الأمنَ لبلد الله الحرام مكَّة، وأنَّ الله

استجاب دعاءه فجعلها بلدًا آمنًا.

قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ أي: أبعِدْني وبَنِيَّ من عبادة الأصنام، واجعلني وإيَّاهم في جانبٍ بعيدٍ عن عبادتها والإلمام بها، وفي هذا الخوف من عبادة الأصنام، والحذر الشَّديد من ذلك، وليتأمَّل العاقل ذلك؛ فإنَّ هذا ممَّا يخيف العبد من الشِّرك، ويوجب للقلب الحيِّ الخوفَ منه، فإذا كان إبراهيم عليه السلام ـ إمامُ الحنفاء الَّذي جعله الله أمَّةً وحده، وابتُلي بكلماتٍ فأتمَّهنَّ، وكسر الأصنام بيده ـ يخاف أن يقع في الشِّرك، ويسأل ربَّه أن يجنِّبه، ويجنِّب بنيه عبادة الأصنام، فما الظنُّ بغيره؟! وكيف يأمن الوقوع فيه من هو دونه بمراتب[1]؟!

روى الإمام الطَّبري في «تفسيره» عن إبراهيم التَّيمي أنَّه كان يقصُّ ويقول في قصصه: «ومن يأمن البلاءَ بعد خليل الله إبراهيم؛ حيث يقول: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾؟!».

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ذكر فيه الموجِب لخوفه عليه وعلى بنيه من عبادتها، وهو كثرة من افتُتن وابتُلي من النَّاس بعبادتها، وبيَّن براءته منها وممَّن عبدها، وردَّ أمرهم إلى الله تعالى، وهو قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ أي: على ما

(١) انظر في هذا: «كتاب التَّوحيد» للشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله وشروحاته «باب الخوف من الشِّرك».

جئت به من التَّوحيد وإخلاص العبادة لله ربِّ العالمين، وفِراق عبادة الأصنام، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: من أهل ديني وملَّتي، ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرَّحمة، وهذا دليلٌ على عظيم شفقته ورحمته بعباد الله، والله تعالى أرحم بعباده منه، لا يعذِّب إلَّا من تمرَّد عليه.

ولهذا جاء عن قتادة أنَّه قرأ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثمَّ قال: «اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم، لا والله ما كانوا طعَّانين، ولا لعَّانين، وكان يقال: إنَّ من أشرِّ عباد الله كلَّ طعَّانٍ لعَّانٍ، قال نبيُّ الله ابنُ مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ]»[١].

روى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ تلا قول الله Y في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ فرفع يديه وقال: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وبكى، فقال الله Y: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**» فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فسأله فأخبره رسول الله

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٨ - ٦٨٩).

ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ**»[1].

وروى مسلم أيضًا في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»[2].

وأمَّا قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فقد تقدَّم الكلام على شيءٍ من معناه عند ذكر دعائه عليه السلام لأهل مكَّة.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه بيانُ أنَّ قصدَه وجهُ الله الَّذي لا تخفى عليه خافيةٌ فقال: ربَّنا إنَّك تعلم ما تخفي قلوبنا عند مسألتنا ما نسألك، وفي غير ذلك من أحوالنا، وما نعلن من دعائنا فنجهَر به، وغير ذلك من أعمالنا، وما يخفى عليك يا ربَّنا من شيءٍ يكون في الأرض ولا في السَّماء؛ لأنَّ ذلك كلَّه ظاهرٌ لك مُتجَلٍّ بادٍ.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ سبق عند الكلام على دعائه عليه السلام بالولد الصَّالح[3].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

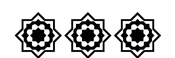
(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٩٩).

(٣) انظر: (ص٣٨).

وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ فيه سؤال الله أن يجعله مقيمًا لها بحدودها وأركانها، وأن يجعل من ذرِّيَّته من يقيمون الصَّلاة، ويحافظون عليها، وأن يستجيب الله لدعائه فيما سأله فيه كلِّه.

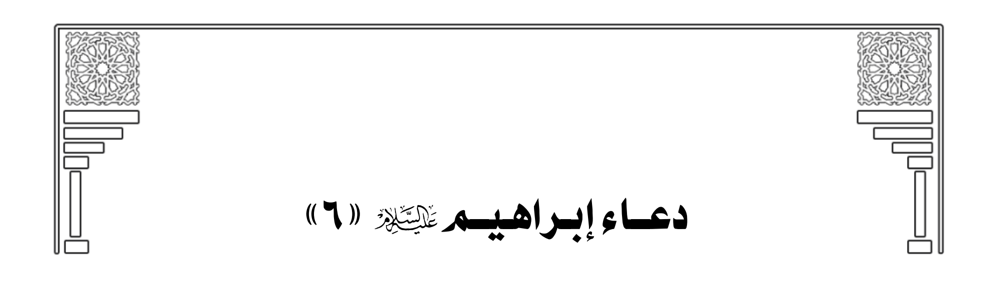
قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في «تفسيره» لهذه الآيات: «ينبغي لكلِّ داعٍ أن يدعو لنفسه ولوالدَيْه ولذرِّيَّته»[1].

وقد استجاب الله تعالى لنبيِّه وخليله عليه السلام فيما دعاه لنفسه ولذرِّيَّته ممَّا تقدَّم ذكره في الآيات، وقد جاء عن ابن جريجٍ رحمه الله أنَّه قال: «فلن يزال من ذرِّيَّة إبراهيم عليه السلام ناسٌ على الفطرة يعبدون الله تعالى، حتَّى تقوم السَّاعة»[2]، وهذا من استجابة الله له.



(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٣١).

(٢) انظر: «الدُّر المنثور» (٥/ ٤٩).



دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ (٦)

إنَّ ممَّا ذكر الله في كتابه العزيز من دعاء خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: استغفاره لأبيه كقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ].

وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أنَّ دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه بالمغفرة من الله كان وعدًا وعده إبراهيمُ أباه، طمعًا في إيمانه، وترغيبًا له فيه، ولكن لمَّا أصرَّ أبوه على الشِّرك بالله تعالى ـ حتَّى مات على ذلك ـ تبرَّأ خليلُ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أبيه حينئذٍ، وترك الاستغفار له؛ لأنَّ الله سبحانه: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، وفي هذا يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ].

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتَّى مات، فلمَّا مات تبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله» وقال أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «استغفر له ما كان حيًّا، فلمَّا مات

أمسك عن الاستغفار»[1]، وقال الضحَّاك رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ يرجو أن يؤمن أبوه ما دام حيًّا، فلمَّا مات على شركه تبرَّأ منه»[2].

ولَمَّا كان هذا هو واقع الحال لاستغفار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه نهى الله تعالى المؤمنين عن الاستغفار للمشركين اقتداءً بإبراهيم في ذلك، وأمرهم بالاقتداء بخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في التَّمسُّك بالتَّوحيد والبراءة من الشِّرك وأهله، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [سُورَةُ المُمْتَحَنَة]، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ﴾، قال الإمام الطَّبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ في هذه الأمور الَّتي ذكرناها: من مباينة الكفَّار ومعاداتهم، وترك موالاتهم إلَّا في قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ فإنَّه لا أسوةَ لكم فيه في ذلك؛ لأنَّ ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعِدةٍ وعدها إيَّاه قبل أن يتبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله، فلمَّا تبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله تبرَّأ منه، يقول تعالى ذكره: فكذلك أنتم أيُّها المؤمنون بالله تبرَّؤوا من أعداء الله من المشركين به، ولا تتَّخذوا منهم أولياء حتَّى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرَّؤوا من عبادة ما سواه، وأظهِروا لهم العداوة والبغضاء» اهـ.

---

(١) رواهما ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣٠).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣١).

وفي هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١١٣﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ].

وفي «الصَّحيحين» عن ابن المسيِّب عن أبيه قال: «لمَّا حضرت أبا طالبٍ الوفاة دخل عليه النَّبيُّ ﷺ وعنده أبو جهلٍ وعبد الله بن أبي أميَّة، فقال: «**أَيْ عَمِّ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ** ﷻ»، فقال أبو جهلٍ وعبد الله بن أبي أميَّة: يا أبا طالبٍ أترغب عن ملَّة عبد المطَّلب؟! قال: فلم يزالا يكلِّمانه، حتَّى قال آخرَ شيءٍ كلَّمهم به على ملَّة عبد المطَّلب، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١١٣﴾، قال: ونزلت فيه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القَصَص: ٥٦]»[1].

وفي «المسند» عن علي رضي الله عنه قال: «سمِعْتُ رجلًا يستغفر لأبوَيْه وهما مشركان، فقلتُ: أيستغفر الرَّجلُ لأبوَيْه وهما مشركان؟ فقال: أَوَ لَمْ يستغفرْ إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنَّبيِّ ﷺ فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾»[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٧٥)، و«صحيح مسلم» (٣٩).

(٢) «مسند أحمد» (١/ ٩٩)، وحسَّن إسناده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٢٤).

وفي هذا كلِّه بيانٌ للمؤمنين، وإرشادٌ لهم إلى عدم الدُّعاء للمشركين بالمغفرة؛ لأنَّ ذلك ليس بنافعٍ لهم ما داموا مُقِيمين على الشِّرك، والله لا يغفر أن يُشْرَكَ به، ولكن له أن يدعو لهم بالهداية وبالتَّوفيق للإيمان والإسلام، كما قال الإمام البخاري في «صحيحه»: «باب الدُّعاء للمشركين بالهدى ليتألَّفهم»، ثمَّ أخرج حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قدم طُفَيْلُ بن عمرو الدَّوسي وأصحابُه على النَّبيِّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنَّ دوسًا عصت وأبَت، فادْعُ اللهَ عليها، فقيل: هلكت دَوسٌ، قال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، وَائْتِ بِهِمْ**»[1]، وفي «المسند» والتِّرمذي عن جابرٍ رضي الله عنه قال: «قالوا: يا رسول الله أَحْرَقَتْنَا نِبال ثَقِيفٍ، فادع الله عليهم، قال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا**»[2].

ومن ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه في ذكر دعوته لأمِّه بالإسلام، وقد كانت مشركةً، وطلبه من النَّبيِّ ﷺ أن يدعو لها، فقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ**» فاستجاب اللهُ دعوتَه، وهدى أمَّ أبي هريرة[3].

ويجوز كذلك الدُّعاء له بالرِّزق أو الغيث تأليفًا لقلبه، كما في «صحيح

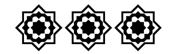
(١) «صحيح البخاري» (٢٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).

(٢) «المسند» (٣/ ٣٤٣)، و«جامع التِّرمذي» (٣٩٤٢)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن التِّرمذي» (ص٤٨٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٩١).

البخاري» لَمَّا طُلِبَ من النَّبيِّ ﷺ أن يستسقي لمضَر فاستسقى لهم[1].

وهذا من الإحسان الَّذي ذكره الله في حقِّ الكفَّار الَّذين لم يقاتلوا المسلمين، ولم يخرجوهم من ديارهم طمعًا في هدايتهم، وتأليفًا لقلوبهم في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [سُورَةُ المُمْتَحَنَة].



(١) «صحيح البخاري» (٤٨٢١).



دعــاء لـــوط عليه السلام

إنَّ ممَّا حكى الله تعالى في كتابه العزيز من أدعية الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ دعاء نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام، وقد كان مُرْسَلًا إلى قومٍ جمعوا ـ مع شركهم بالله تعالى ـ منكرًا عظيمًا لم يفعَلْه أحدٌ قبلَهم من أهل الدُّنيا، وهو فعل الفاحشة في الذُّكور، كما قال سبحانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة الأعراف].

وكانت هذه الفَعْلَةُ القبيحة فاشيةً فيهم، حتَّى إنَّه لربَّما وقعت منهم في المحافل، ولا يستنكفون ولا يرعَوُون لوَعظِ واعظٍ، ولا لنصيحةِ ناصحٍ، وكانوا في ذلك كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلًا.

ولهذا كان من دعاء نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام ما حكاه الله عنه في قوله: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة الشعراء].

فلوطٌ عليه السلام قد أعلن بُغضه الشَّديد، وبراءته من هذا العمل الشَّنيع، ثمَّ دعا ربَّه فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، وهذا الدُّعاء يتضمَّن الاستعاذة

بالله تعالى من هذا العمل المنكر، ومن شُؤمه وغائلته وعقوبته.

وفي هذا الدُّعاء تعليمٌ وإرشادٌ للعباد إلى الاعتصام بالله تعالى، والاستعاذة به من منكرات الأعمال والأقوال، وطلب النَّجاة من شؤمها وغوائلها، ولا سيَّما عند كثرة هذه المنكرات وانتشارها، ومجاهرة فَسَقَة الخلق بها.

وقد كان من أدعية رسول الله ﷺ ما جاء في حديث زِيَادِ بن عِلاقَةَ عن عمِّه رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ، وَالأَعْمَالِ، وَالأَهْوَاءِ**» رواه التِّرمذي[1].

وما جاء في حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى، وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ، وَالغِنَى**» رواه مسلم[2].

وعن شَكَل بن حُمَيدٍ رضي الله عنه قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فقلت: يا نبي الله علِّمني تعوُّذًا أتعوَّذ به ـ وفي روايةٍ: علِّمني دعاءً أنتفع به ـ، فأخذ بيدي، ثمَّ قال: «**قُلْ: أَعُوذُ بِكَ ـ وفي روايةٍ: اللَّهُمَّ عَافِنِي ـ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي**» رواه النَّسائي[3].

---

(١) «جامع التِّرمذي» (٣٥٩١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن التِّرمذي» (٣/ ٤٧٣).

(٢) مسلم (٢٧٢١).

(٣) رواه أبو داود (١٥٥١)، والتِّرمذي (١٩٥٣)، و«سنن النَّسائي» (٥٤٥٦)، وصحَّحه الألباني، قال المناوي في «فيض القدير» (٢/ ١٣٥): «ومن شرِّ منيِّي: من شرِّ شدَّة الغُلْمَة، وسطوة الشَّهوة إلى الجماع، الَّذي إذا أفرط ربَّما أوقع في الزِّنا أو مقدِّماته لا محالة، فهو حقيقٌ بالاستعاذة من شرِّه».

والتَّعوُّذ بالله من شرِّ المنِي له شأنٌ مهمٌّ في حياة الإنسان، ذكرًا كان أو أنثى، ولا سيَّما عند كثرة دواعي الفتنة، وبواعث الفساد؛ فإنَّ شهوة الفرْج من أعظم ما ابْتُلِيَ به الإنسان، وثورتها أو إثارتها تؤدِّي بالإنسان إلى مسالك رديئةٍ، وإلى مهالك بعيدةٍ، وقد كانت فَعْلَةُ قوم لوطٍ من هذا الباب، وانزلاقهم كان من هذا المنزلق، حتَّى إنَّ الله تعالى وصفهم في شهوتهم هذه بقوله سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سُورَةُ الحِجْرِ].

قال العلَّامة ابن سِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه السَّكرة هي سكرة محبَّة الفاحشة الَّتي لا يبالون معها بعَذلٍ، ولا لَومٍ»[1]، فهذا من شرِّ المنيِّ الَّذي يجب على العبد أن يسأل ربَّه العصمة، والنَّجاة منه.

ولمَّا تملَّكت هذه الشَّهوة قومَ لوطٍ لم يستجيبوا لدعوته، ولا لنهيه إيَّاهم عن إتيان الذُّكور، بل ازدادوا عنادًا وطغيانًا، حتَّى طلبوا منه وقوع ما حذَّرهم عنه من مجيء العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم، فعند ذلك سأل لوطٌ ربَّ العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين، فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سُورَةُ العَنْكَبُوتِ]، فغار الله تعالى لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته فبعث ملائكته العظام لإهلاكهم، وإنزال بأسه الَّذي لا يُرَدُّ عن القوم الظَّالمين المعتدين.

ومن عجيب أمر قومه، وتماديهم في سكرتهم أنَّ ملائكة العذاب عندما

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٠٢).

أَتَوْا إلى لوطٍ عليه السلام، وكانوا في صورة أضيافٍ آدميِّين، شبابٍ حِسانٍ؛ توافَد إليه قومُه في بيته وجاؤوه يُهرَعون إليه، يريدون فعل الفاحشة بأضيافه، فزجرهم ونهاهم وحذَّرهم وأنذرهم، وكان من قوله لهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾ [سورة هود]، إلَّا إنَّ القوم كانوا في سكرتهم يعمهون، وفي غيِّهم متمادِين، وفي شهواتهم سادِرين إلى أن حلَّ بهم العقاب، ونزل بهم العذاب، كما قصَّ الله تعالى ذلك في مواضع من كتابه العزيز.

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾ [سورة العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾ [سورة الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [سورة هود].

وهذه الآية فيها دلالةٌ على أنَّ هذه العقوبة الَّتي حلَّت بهم، والنَّكال الَّذي نزل بهم ليس ببعيدٍ ممَّن يعمل عملهم، ويفعل فعلهم.

نعوذ بالله من موجِبَاتِ غضبه، وأليم عقابه، ونسأله سبحانه أن يجنِّب المسلمين الفتن، وأن يعيذهم من الشُّرور والمحن، وأن يجيرهم من الفواحش وغوائلها وعواقبها، ما ظهر منها وما بطن، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.



دعاء شعيب عليه السلام

إنَّ من دعوات الأنبياء الواردة في القرآن: ما ذكره الله تعالى في سياق قصَّة نبيِّ الله شعيب عليه السلام، الَّذي كان مثالًا عاليًا في الصَّبر على الأذى وتحمُّله في سبيل نشر دين الله، والدَّعوة إلى صراطه المستقيم، وكان من أمره مع قومه ما قصَّه الله علينا بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الأعراف].

قال الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله: «هذا إخبارٌ من الله عمَّا واجهت به الكفَّارُ نبيَّ الله شُعَيْبًا، ومن معه من المؤمنين في تَوعُّدِهم إيَّاه ومن معه بالنَّفي من القرية، أو الإكراه على الرُّجوع في ملَّتهم، والدُّخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطابٌ مع الرَّسول، والمراد أتباعه الَّذين كانوا معهم على الملَّة»(١).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤٤).

فهاهنا تهديدٌ صريحٌ، وتوعُّدٌ شديدٌ من الكفَّار لنبيِّ الله شعيبٍ عليه السلام، ولمن معه من المؤمنين بالطَّرد من بلدهم إن لم يعودوا في ملَّة الكفر، ولهذا قال عليه السلام جوابًا لقومه: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾، والهمزة هنا للاستفهام، وهو استفهام إنكارٍ وتعجُّبٍ، «أي: أنتابعكم على دينكم وملَّتكم الباطلة ولو كنَّا كارهين لها لعلمنا ببطلانها؛ فإنَّما يُدْعَى إليها من له نوع رغبةٍ فيها، أمَّا من يعلن بالنَّهي عنها، والتَّشنيع على من اتَّبعها؛ فكيف يدعى إليها؟!»[(١)].

وفي هذا السِّياق دلالةٌ على أنَّ من هداه الله إلى الإيمان، وخالطت بشاشتُه قلبَه لا يسخطه أبدًا، ولا يريد التَّحوُّل عنه، لوضوح طريق الهداية وحسنه، ولفساد طريق الضَّلال وقبحه، ولهذا قال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال الإمام الطَّبري رحمه الله: «يقول: قد اختلقنا على الله كذبًا، وتخرَّصنا عليه من القول باطلًا؛ إن نحن عُدنا في ملَّتكم، فرَجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها، بأن بَصَّرَنا خطأها، وصواب الهدى الَّذي نحن عليه»[(٢)] اهـ.

وهذا القول من نبيِّ الله شعيبٍ عليه السلام تَيئِيسٌ للكفَّار من دعوته هو ومن معه من المؤمنين إلى ملَّتهم، وبيانٌ منه لهم أنَّ ما هم عليه من الكفر والشِّرك افتراءٌ عظيمٌ على الله تعالى، وأنَّه لا أحد أعظم افتراءً ممَّن عبدَ غير الله تعالى،

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٣٣٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٣١٨).

وجعل معه شريكًا في شيءٍ من حقوقه وخصائصه، بل الله تعالى لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، ولا شريك معه.

كما تضمَّن قولُه عليه السلام ذكرًا لمنَّة الله تعالى عليه، وعلى من آمن معه بالنَّجاة من الكفر والشِّرك، والهداية إلى الإيمان والإسلام والتَّوحيد؛ فإنَّ الله y يمُنُّ على من يشاء من عباده، فيوفِّقُهُ للهداية إلى الحقِّ، ويخذلُ من يشاء من عباده فيضلُّ عن الحقِّ، ويقيم على الباطل، وهذا المعنى أكَّده نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام بقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾، فهذا ردٌّ للأمر إلى مشيئة الله على جهة التَّسليم له؛ إذ هو الَّذي وسع كلَّ شيءٍ علمًا، يعلم ما كان، وما هو كائنٌ، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنَّ توفيق العبد وهدايته بيد الله؛ إذ لا خروج لأحدٍ عن مشيئته وقضائه وقدره.

ثمَّ ختم نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام محاجَّته لكفَّار قومه بالدُّعاء، والتَّوكُّل على الله تعالى، فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال الإمام الطَّبري رحمه الله: «يقول: على الله نعتمد في أمرنا، وإليه نستند فيما تعِدُوننا به من شرِّكم أيُّها القوم فإنَّه الكافي من نتوكل عليه»[١].

وقد حكى الله تعالى عن نبيِّه شعيبٍ عليه السلام في آيةٍ أخرى أنَّه قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ٣١٩).

إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، أي: اعتمدتُّ عليه في أموري، ووثقت في كفايته، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي: في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وبهذَيْن الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربِّه، والإنابة إليه، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [سُورَةُ الفَاتِحَةِ].

وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ أي: احكم بيننا وبينهم بحكمك الحقِّ الَّذي لا ظلم فيه ولا حيف ولا جور، بأن ينصر الحقَّ وأهله، ويذلَّ الباطل وأهله، ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سُورَةُ سَبَإٍ]، و«الفتَّاح» اسمٌ من أسماء الله الحسنى، وهو دالٌّ على صفة كمالٍ عظيمةٍ لله y، فهو سبحانه يحكم بين عباده بما شاء، ويقضي فيهم بما يريد، ويمُنُّ على من يشاء منهم بما يشاء، لا رادَّ لحكمه، ولا معقِّب لقضائه وأمره.

قال ابن سِعدي رَحِمَهُ اللهُ: «**وفتحه تعالى لعباده نوعان:**

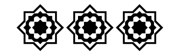
فتح العلم بتبيين الحقِّ من الباطل، والهدى من الضَّلال، ومن هو من المستقيمين على الصِّراط ممَّن هو منحرفٌ عنه.

النَّوع الثَّاني: فتحه بالجزاء، وإيقاع العقوبة على الظَّالمين، والنَّجاة والإكرام للصَّالحين.

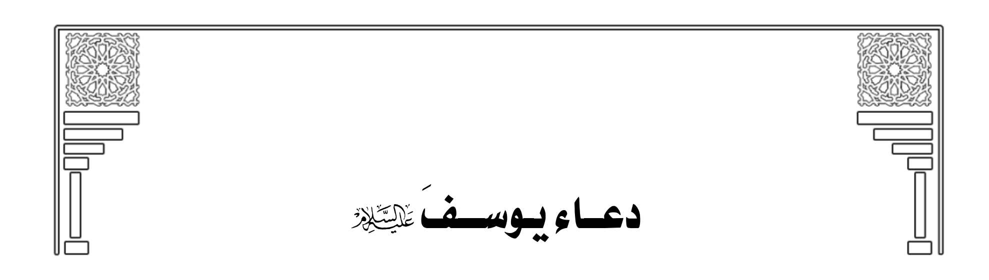
فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحقِّ والعدل، وأن يريَهم من

آياته وعبره ما يكون فاصلًا بين الفريقَيْن»[1].

وقد استجاب الله دعوة نبيِّه شعيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففتح بينه وبين قومه بالحقِّ، فجاء أمره سبحانه بنصر نبيِّه شعيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمؤمنين معه وإهلاك الكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [سُورَةُ هُودٍ].



(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٣٣٥).



دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

لقد ذكر الله تعالى في موضعَيْن من سورة يوسف دعاءَيْن لنبيِّه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كلٌّ دعاءٍ له شأنه ومناسبته الَّتي يحسن تأمُّلها وتدبُّرها.

❁ **الدُّعاء الأوَّل**: قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ].

وهذا مقامٌ من مقامات الفزَع إلى الله في طلب العصمة من مقارفة الذَّنب، والوقاية من كيد الأشرار، ولا سيَّما كيد النِّساء وفِتْنَتُهُنَّ الَّتي هي من أشدِّ الفتن على الرِّجال في هذه الحياة، بل قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[1]، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تعرَّض في شبابه وفتوَّته لهذه الفتنة العظيمة من النِّسوة اللَّاتي أَردنَ منه فعلَ الفاحشة، فما كان منه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا البُعد عن كيدهِنَّ، واللَّجأ إلى الله بطلب العصمة من فتنتهنَّ، وذلك قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ يعني: أنَّ دخول السِّجن

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٩٦)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٠).

الَّذي هدَّدته به امرأةُ العزيز إن لم يلَبِّ رغبتها ـ على ما فيه من شظَفٍ وشدَّة ـ أسهلُ عليه وأهون من الوقوع في المعصية، واقتراف الخطيئة، فآثر عَلَيْهِ السَّلَامُ مرضاةَ الله، والتجأ إليه، لعلمه بأنَّه لا يُطِيقُ صرفَ ذلك عن نفسه إن لم يعصِمْه ربُّه من ذلك، وينجه من الوقوع فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

قال الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول: وإن لم تدفع عنِّي يا ربِّ فِعلَهنَّ الَّذي يفعلن بي في مُراوَدَتهنَّ إيَّاي على أنفسهنَّ ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ يقول: أميل إليهنَّ وأتابعهنَّ على ما يُرِدْنَ منِّي ويَهوَيْنَ»[1].

وقال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: إن وكَلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلَّا العجزُ والضَّعف، ولا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلَّا ما شاء الله، فأنا ضعيفٌ إلَّا ما قوَّيتني وعصَمتني وحفظتني وحُطتَّني بحولك وقوَّتك»[2].

وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أكن بصبوتي إليهنَّ من الَّذين جهلوا حقَّك، وخالفوا أمرك ونهيك، وقد دلَّ هذا على أنَّ أحدًا لا يمتنع عن معصية الله، ولا يسلم من الوقوع فيها إلَّا بعون الله وتوفيقه، كما دلَّ أيضًا على قبح الجهل، وذمِّ صاحبه، وأنَّ كلَّ من عصى الله فهو جاهلٌ.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ١٤٤).

(٢) «البداية والنِّهاية» (١/ ٤٧٣).

قال العلَّامة ابن سِعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالةٍ عظيمةٍ أفردها بعنوان «فوائد مستنبطةٌ من قصَّة يوسف»: «ومنها ـ أي: الفوائد ـ أنَّه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله عند خوف الوقوع في فتنة المعاصي والذُّنوب، مع الصَّبر والاجتهاد في البُعد عنها، كما فعل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ودعا ربَّه قال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وأنَّ العبد لا حولَ له ولا قوَّةَ، ولا عصمةَ إلَّا بالله، فالعبد مأمورٌ بفعل المأمور، وترك المحظور، والصَّبر على المقدور، مع الاستعانة بالملك الشَّكور»[1] اهـ.

وقد استجاب الله دعوةَ نبيِّه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: فاستجاب الله ليوسف دعاءه، ولطف به وعصمه من كيد النِّسوة، ومن الوقوع في المعصية، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ]، فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد أخلص لله تعالى توحيدَه وحُبَّه، فأخلصه الله لنفسه، وخلَّصه من فتنة النِّساء المهلكة، ومن الوقوع في الشَّهوات المردية.

❁ **الدُّعاء الثَّاني**: قال الله تعالى حكايةً عن نبيِّه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في تمام ذكر قصَّته: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ].

(١) «فوائد مستنبطةٌ من قصة يوسف» (ص١٩).

قال الحافظُ ابن كثيرٍ رحمه الله: «هذا دعاءٌ من يوسف الصِّدِّيق، دعا به ربَّه y لَمَّا تمَّت النِّعمة عليه باجتماعه بأبوَيه وإخوَته، وما منَّ اللهُ به عليه من النُّبوَّة والملك، سأل ربَّه y كما أتمَّ نعمته عليه في الدُّنيا أن يستمِرَّ بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مسلمًا حين يتوفَّاه ـ قاله الضحَّاك ـ، وأن يُلْحِقَه بالصَّالحين، وهم إخوانه من النَّبيِّين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[1].

فهي دعوةٌ عظيمةٌ مباركةٌ جامعةٌ، قال العلَّامة ابن القيِّم رحمه الله: «جمعت هذه الدَّعوة الإقرار بالتَّوحيد، والاستسلام للرَّبِّ، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجلَّ غايات العبد، وأنَّ ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السُّعداء»[2].

ويستفاد من هذا الدُّعاء: أنَّ على العبد أن يلجأ دائمًا إلى ربِّه، ويُلِحَّ عليه بالدُّعاء بأن يثبِّت إيمانه، ويعملَ الأسبابَ الموجِبَةَ لذلك، ويسألَ اللهَ تعالى أن يتمَّ له النِّعمة، ويحسن له الخاتمة، وأن يجعل خيرَ أيَّامه آخرها، وخير أعماله خواتمها؛ فإنَّ الله كريمٌ جوَادٌ رحيمٌ.

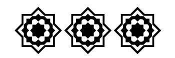
وليس فيما حكاه اللهُ من دعاء يوسف عليه السلام في هذا المقام ما يدلُّ على أنَّه دعا باستعجال الموت، وإنَّما الَّذي يدلُّ عليه ظاهرُ الكلام أنَّه عليه السلام سأل ربَّه الثَّبات على الإسلام، حتَّى يتوفَّاه حين يتوفَّاه عليه، ويلحق بالصَّالحين من عباده.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٧).

(٢) «الفوائد» (ص٣٤٩).

وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ النَّهي عن تمنِّي الموت، كما في حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**» متَّفق عليه[1].



(١) «صحيح البخاري» (٥٦٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٠).



دعــاء أيــوب عليه السلام

إنَّ من الدَّعوات العظيمة الواردة في القرآن الكريم: دعاءَ نبيِّ الله أيُّوب عليه السلام، الصَّابر المحتسب، وقد تعرَّض لابتلاءٍ عظيمٍ في بدنه وأهله وماله، حتَّى إنَّ المثَلَ ليُضرَبُ بما حصل له عليه السلام من أنواع البلايا، ولم يزِدْه هذا كلُّه إلَّا صبرًا واحتسابًا وابتهالًا إلى الله تعالى، وتضرُّعًا إليه، لكشف ما به من الضُّرِّ والبلاء؛ لأنَّه سبحانه هو وحده الملاذ في الكرُبات، المدعُوُّ في الشِّدَّة والرَّخاء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [سورة ص]، أي: واذكر ـ والخطاب لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ ـ عبدنا أيُّوب إذ نادى ربَّه داعيًا مستغيثًا به، وإليه لا إلى غيره شاكيًا، فقال: يا ربِّ إنِّي مسَّني الشَّيطان بنصبٍ وعذابٍ، أي: بمشقَّةٍ وتعَبٍ في جسده، وعذابٍ وهلاكٍ في أهله وماله.

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة الأنبياء]، أي: واذكر أيُّوب إذ نادى ربَّه، وقد مسَّه الضُّرُّ والبلاء، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وفي هذا السِّياق ثناءٌ

عظيمٌ على عبد الله ورسوله أيُّوب عليه السلام، ورفع لقدره حين ابتلاه الله ـ جلَّ وعلا ـ ببلاءٍ شديدٍ، فوجده صابرًا مُحْتَسِبًا، حتَّى صار بهذا الصَّبر قدوةً للصَّابرين، وسَلْوَةً للمُبْتَلَيْنَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة ص].

وقد توسَّل عليه السلام إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ بالإخبار عن حال نفسه، وأنَّه بلغ الضُّرُّ منه مبلغًا عظيمًا، وبرحمة الله الواسعة العامَّة، فنادى ربه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «جمع ـ يعني أيُّوب عليه السلام ـ في هذا الدُّعاء بين حقيقة التَّوحيد وإظهار الفَقر والفاقة إلى ربِّه، ووجود طعم المحبَّة في التَّملُّق له، والإقرار له بصفة الرَّحمة، وأنَّه أرحم الرَّاحمين، والتَّوسُّل إليه بصفاته سبحانه، وشدَّة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المُبْتَلَى هذا كُشِفَتْ عنه بلواه»[1].

وقد استجاب الله تعالى دعاء نبيِّه أيُّوب عليه السلام، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة الأنبياء]، وبيَّن الله سبحانه كيفيَّة كشفه الضُّرَّ عن أيُّوب عليه السلام، وأنَّه سبحانه لَمَّا أراد إذهاب الضُّرِّ عن أيُّوب أمره أن يركُض برجله، كما قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة ص].

قال الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله: «أي: اضرِبِ الأرضَ برجلك، فامتثل ما أُمِرَ به، فأنبع اللهُ له عينًا باردةَ الماء، وأُمِرَ أن يغتسل فيها ويشرب منها،

---

(١) «الفوائد» (ص٣٤٩).

فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسَّقم والمرض الَّذي كان في جسده ظاهرًا وباطنًا، وأبدله اللهُ بعد ذلك كلِّه صحَّةً ظاهرةً وباطنةً، وجمالًا تامًّا، ومالًا كثيرًا، حتَّى صبَّ له من المال صبًّا، مطرًا عظيمًا جرادًا من ذهَبٍ، وأخلف اللهُ له أهلَه، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فقيل: أحياهم اللهُ بأعيانهم، وقيل: آجره فيمن سلَف، وعوَّضه عنهم في الدُّنيا بدلهم، وجمع له شملَه بكلِّهم في الدَّار الآخرة، وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: رفعنا عنه شدَّته ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ رحمةً منَّا به، ورأفةً وإحسانًا ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: تذكرةً لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده، فله أسوةٌ بنبيِّ الله أيُّوب، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب، حتَّى فرَّج الله عنه»[1].

وقال الطَّبري رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾: «يقول: وتذكرةً للعابدين ربَّهم فَعَلْنَا ذلك به، ليعتبروا به، ويعلموا أنَّ الله قد يبتلي أولياءه، ومَن أحبَّ من عباده في الدُّنيا بضروبٍ من البلاء في نفسه وأهله وماله، من غير هَوانٍ به عليه، ولكن اختبارًا منه ليبلغ بصبره عليه، واحتسابه إيَّاه، وحسن يقينه منزلَتَه الَّتي أَعدَّها له ـ تبارك وتعالى ـ من الكرامة عنده»، ثمَّ ساق بسنده إلى محمَّد بن كعب القُرَظِي أنَّه قال: «أيُّما مؤمنٍ أصابه بلاءٌ فذكر

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٥١٣).

ما أصاب أيُّوب، فليقُل: قد أصاب من هو خيرٌ منَّا، نبيًّا من الأنبياء»[1].

والمؤمن عُرضةٌ في هذه الحياة للابتلاء، بل جاء في الحديث عن سعد ابن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله أيُّ النَّاس أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِي عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**» رواه أحمد والتِّرمذي[2].

ومن يتأمَّل من المُبْتَلَيْنَ ما أصاب نبيَّ الله أيُّوب عليه السلام يجد في ذلك سلوةً وعبرةً، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء الشَّديد، ثمَّ ما أثابه الله بعد زواله، وتأمَّلوا في سبب ذلك وجدوه الصَّبر، فجعلوه أسوةً وقدوةً لهم.

وفيما حكى الله تعالى من دعاء أيُّوب عليه السلام بيانُ أنَّ من أعظم أسباب الفرج دعاءَه y ، والابتهالَ إليه والتَّضرُّع له، وإظهار الفاقة لديه، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والتَّوسُّل إليه بذلك.

وفيه أنَّ البلاء لا يدلُّ على الهوان والشَّقاء، بل قد يكون تكفيرًا للسَّيِّئات، أو رفعًا للدَّرجات، فللَّه الحكمةُ البالغةُ في ذلك، وقد ثبت في «الصَّحيحين»

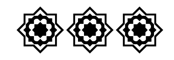
---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٦٧ـ٣٦٨).

(٢) «مسند أحمد» (١/ ١٧٢)، و«جامع التِّرمذي» (٢٣٩٨)، ورواه ابن ماجه (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التِّرمذي» (٢/ ٥٦٥).

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا خَطَايَاهُ**»[1].

وفيه كذلك أنَّ الدُّعاء بكشف الضُّرِّ، ورفع البلاء لا ينافي الصَّبر والرِّضا بالقضاء؛ فإن ترك الصَّبر يكون بإظهار الشَّكوى إلى الخلق، أمَّا إظهارها إلى الله تعالى فلا يكون تركًا للصَّبر.



(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤٢)، و«صحيح مسلم (٢٥٧٣).



دعاء يونس عليه السلام

ومن الدَّعوات العظيمة المذكورة في القرآن: ما ورد في قصَّة يونس وكان عليه السلام نبيًّا من أنبياء الله تعالى، وكان مبعوثًا إلى أهل نِينَوَى من أرض المَوْصِل بالعراق، فدعاهم إلى الله تعالى فأَبَوْا عليه، وتمادوا في كفرهم، فوعدهم بالعذاب، ثمَّ خرج من بين أظهرهم مغاضِبًا لهم قبل أن يأمره الله تعالى بذلك، إلى أن ركب مع جماعةٍ في سفينةٍ مليئةٍ بالرُّكَّاب والأحمال، فلجَّجَتْ بهم في البحر، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على من يُلْقُونَه من بينهم في البحر ليتخفَّفوا منه، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام ابتلاءً من الله تعالى له، وعندئذٍ قام عليه السلام وألقى بنفسه في البحر، فأرسل الله تعالى من البحر حوتًا عظيمًا فالتقم يونس عليه السلام، وأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا يأكل له لحمًا ولا يهشم له عظمًا، بل يبتلعه ليكون بطنه له سجنًا، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ].

ولَمَّا صار يونس عليه السلام في بطن الحوت في تلك الظُّلمات، نادى ربَّه مستغيثًا مُعْتَرِفًا بخطئه، كما أخبر عنه ذو العزَّة والجلال الَّذي يعلم السِّرَّ والنَّجوى، ويكشف الضُّرَّ والبلوى، سامعُ الأصوات وإن ضَعُفَتْ، وعالم الخفيَّات وإن دقَّت، ومجيب الدَّعوات وإن عظُمَتْ، حيث قال في كتابه: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنبياء].

فقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ قال الإمام الطَّبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمَّد ذا النُّون يعني صاحب النُّون، والنُّون الحوت، وإنَّما عنى بذي النُّون يونس بن متَّى»(١).

وقوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «غضب على قومه»، ومثله عن الضحَّاك(٢).

وقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «يقول: ظنَّ أن لن نقضي عليه عقوبةً، ولا بلاءً فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره، وعقوبته أخذ النُّون إيَّاه»، ونحوه عن قتادة، ومجاهد، والضحَّاك(٣).

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٤).

(٢) رواهما ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٤).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ قال ابن مسعودٍ وابن عبَّاسٍ وغيرهما من المفسِّرين: «ظُلمة بطن الحوت، وظُلمة البحر، وظُلمة اللَّيل»[1].

وقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: نادى يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه بهذا القول معترفًا بذنبه، تائبًا من خطيئته.

❁ وهذا الدُّعاء العظيم الَّذي نادى به يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه في بطن الحوت يتضمَّن ثلاثة جوانب:

الأوَّل: قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه إثبات انفراده بالإلهيَّة، والإلهيَّة تتضمَّن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد؛ فإنَّ الإله هو المألوه، والمألوه هو الَّذي يستحقُّ أن يُعْبَد، وكونه يستحقُّ أن يُعْبَد هو بما اتَّصف به من الصِّفات الَّتي تستلزم أن يكون هو المحبوب غايةَ الحبِّ، المخضوع له غاية الخضوع، والعبادة تتضمَّن غاية الحبِّ بغاية الذلِّ»[2].

الثَّاني: قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، وفيه إثبات تنزيه الله من كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وإثبات عظمته الموجبة له براءته من النَّقائص والعيوب، فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ يتضمَّن معاني أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، ففيه كمال المدح والثَّناء لله تعالى مع كمال الذلِّ والحبِّ والخضوع.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٨٢)، و«البداية والنِّهاية» لابن كثيرٍ (٢/ ٢٠ ـ ٢١).

(٢) «دقائق التَّفسير» (٤/ ٣٦٤).

الثَّالث: قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفيه اعترافٌ بذنبه وبحقيقة حاله، وهو يتضمَّن طلب المغفرة من الله تعالى؛ فإنَّ الطَّالب السَّائل تارةً يسأل بصيغة الطَّلب، وتارةً يسأل بصيغة الخبر: إمَّا بوصف حاله، وإمَّا بوصف حال المسؤول، وإمَّا بوصف الحالين.

فدعاء يونس عليه السلام في هذا المقام قد تضمَّن من المعاني الجليلة، والدَّلالات العظيمة ما يوجب القبول والإجابة، قال ابن القيِّم رحمه الله: «وأمَّا دعوة ذي النُّون؛ فإنَّ فيها من كمال التَّوحيد والتَّنزيه للربِّ تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج؛ فإنَّ التَّوحيد والتَّنزيه يتضمَّنان إثبات كلِّ كمالٍ لله، وسلبَ كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وتمثيلٍ عنه، والاعتراف بالظُّلم يتضمَّن إيمان العبد بالشَّرع والثَّواب والعقاب، ويُوجِبُ انكسارَه ورجوعَه إلى الله واستقالَتَه عثرته، والاعتراف بعبوديَّته، وافتقاره إلى ربِّه، فهاهنا أربعة أمورٍ قد وقع التَّوسُّل بها: التَّوحيد، والتَّنزيه، والعبوديَّة، والاعتراف»[1].

وقد استجاب الله لنبيِّه يونس عليه السلام ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: فاستجبنا ليونس دعاءه إيَّانا، إذ دعانا في بطن الحوت ونجَّيناه من الغمِّ الَّذي كان بسبب حبسه في بطن الحوت.

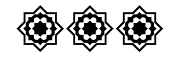
وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه كمال هذه الدَّعوة،

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٠٨).

وأنَّها دعوةٌ مستجابةٌ، قال ابن جرير الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول ـ جلَّ ثناؤه ـ: وكما أنجينا يونس من كَرب الحبس في بطن الحوت في البحر إذ دعانا، كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا»[1].

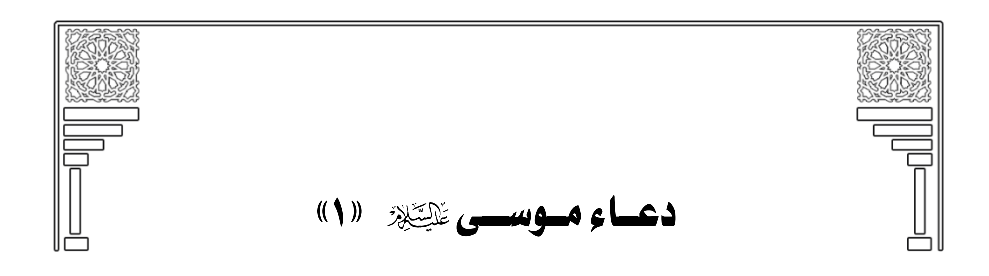
وذكر ابن كثيرٍ نحوًا من هذا وقال: «ولا سيَّما إذا دَعَوْا بهذا الدُّعاء في حال البلاء، فقد جاء التَّرغيب في الدُّعاء بها عن سيِّد الأنبياء»[2]، ثمَّ أَوْرَدَ ما رواه أحمد والتِّرمذي وغيرهما عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ»**[3].



(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٨٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٣).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٦)، و«سنن أبي داود» (٥٠٩٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٨٨).



دعاء موسى عليه السلام «١»

لقد ساق الله تعالى قصَّة نبيِّه موسى عليه السلام في مواضع كثيرةٍ من كتابه العزيز بأساليب متنوِّعةٍ، وليس في قصص القرآن أعظمُ من قصَّته، ولا أكثرُ منها مواقف وعبرًا؛ لأنَّه عليه السلام عالج أكبر طاغيةٍ عرفه التَّاريخ؛ فرعونَ وجنودَه، وعالج أعنت شعبٍ عرفه النَّاس؛ بني إسرائيل، فكانت مهمَّةُ موسى عليه السلام من أقوى المهمَّات، ورسالته من أظهر الرِّسالات.

وقد اشتملت قصَّة موسى عليه السلام في القرآن الكريم على مواقف عديدةٍ دعا فيها اللهَ تعالى بدعواتٍ عظيمةٍ دالَّةٍ على كمال ذلِّه وخضوعه، وتمام عبوديَّته لله ربِّ العالمين، وعلى مكانته ووجاهته، وعلوِّ شأنه عند ربِّه y .

❊ **فمن دعاء موسى** عليه السلام: ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة القصص]، وهذا الدُّعاء قد قاله موسى عليه السلام استغفارًا وتوبةً إلى ربِّه سبحانه لقتله رجلًا قبطيًّا خطأً من غير قصدٍ لقتله، ولكنَّه قَصَدَ مساعدة رجلٍ إسرائيليٍّ من شيعته استغاث به على القبطي، فوكزه موسى، أي: ضربه بقبضة يده، فقضى عليه لقوَّة موسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يَنْسُبْ عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الفِعْلَ إلى القدر معتذرًا بذلك، بل بادر بالتَّوبة والاستغفار؛ لأنَّه كان السَّببَ فيه، وهذا معنى ما رُوِيَ عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ قال: «وعرف نبيُّ الله عَلَيْهِ السَّلَامُ من أين المخرَج، فأراد المخرج فلم يُلْقِ ذنبَه على ربِّه»[1].

وقد ذكر العلَّامة ابن سِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ من فوائد هذه القصَّة: «أنَّ قتل الكافر الَّذي له عهدٌ بعقدٍ أو عُرفٍ لا يجوز؛ فإنَّ موسى ندم على قتله القبطي، واستغفر الله وتاب إليه»، وذكر أيضًا من فوائدها: «أنَّ الَّذي يقتل النُّفوس بغير حقٍّ يعَدُّ من الجبَّارين المفسدين في الأرض، ولو كان غرضه من ذلك الإرهاب، ولو زعم أنَّه مُصْلحٌ، حتَّى يَرِدَ الشَّرعُ بما يُبِيحُ قتل النَّفس»[2] اهـ.

وبهذا الكلام المتين الَّذي ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ يُعلَم فسادُ ما عليه بعض المندفعين والمتهوِّرين، ممَّن جعلوا إرهاب المؤمنين وإرعاب الآمنين، وإخافة المطمئنِّين وقتل المسلمين، والمستأمَنين سبيلًا للإصلاح بزعمهم، وهم في الحقيقة من الجبَّارين في الأرض، ومن المفسدين.

❊ **ومن دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ**: أنَّه لمَّا أُخبر بأنَّ الأقباط يأتمرون به ليثأروا منه لقتله القبطيَّ، خرج من المدينة فرارًا بنفسه، داعيًا ربَّه y في هذه الحال، كما قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

(١) أورده السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٦/ ٣٩٩).

(٢) «تيسير اللَّطيف المنَّان» (ص١٣١).

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [سُورَةُ القَصَصِ].

فقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دعاءٌ بالنَّجاة من فرعون وقومه الَّذين يأتمرون لقتله، وسمَّاهم ظالمين؛ لأنَّه قد تاب من ذنبه، وفعله غضبًا من غير قصدٍ منه للقتل، فَتَوَعُّدُهم له بالقتل ظلمٌ منهم واعتداءٌ، وقيل: سمَّاهم ظالمين؛ لأنَّهم ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى.

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ دعاءٌ بالهداية إلى الطَّريق الوسط، المُوصِل إلى البلد الَّذي قصده ـ وهو مَدْيَن ـ، وإلى كلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة.

وقد استجاب الله دعاءه وأعطاه ما سأل، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الطَّريق المستقيم في الدُّنيا والآخرة، فجعله هاديًا مهديًّا»[(١)].

وأشار العلَّامة ابن سِعدي في هذا المقام إلى أنَّ في هذا الدُّعاء تنبيهًا لطيفًا على أنَّ النَّاظر في العلم عند الحاجة إلى العلم، أو التَّكلُّم به إذا لم يترجَّحْ عنده أحد القولَيْن، فإنَّه يستهدي ربَّه، ويسأله أن يهديه إلى الصَّواب من القولَيْن، بعد أن يقصد الحقَّ بقلبه ويبحث عنه؛ فإنَّ الله لا يخيِّبُ من هذه حالُه، كما جرى لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَمَّا قصد تلقاء مَديَن، ولا يدري الطَّريق المُعيَّن إليها قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقد هداه الله، وأعطاه ما رجاه وتمنَّاه[(٢)].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٣٦).

(٢) انظر: «تيسير اللَّطيف المنان» (ص١٣١، ١٣٢).

❁ **ومن دعائه** عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنَّه لَمَّا جهِدَ به السَّفر، وبلغ به الجوع كلَّ مبلغٍ، ولم يكنْ معه من الطَّعام ما يأكله قال في هذه الحال مسترزِقًا ربَّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سُورَةُ القَصَصِ].

وقد أجمع المفسِّرون على أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب في هذا الدُّعاء ما يأكله لما به من الجوع الشَّديد؛ فإنَّ هذا وصفٌ لحاله بأنَّه فقيرٌ إلى ما أنزل الله إليه من الخير، وهو متضمِّنٌ لسؤال الله إنزالَ الخير إليه، وهذا من أبلغ الوسائل إلى الله y .

قال ابنُ سِعدي رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ الله كما يحبُّ من الدَّاعي أن يتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته، ونعمه العامَّة والخاصَّة؛ فإنَّه يحبُّ منه أن يتوسَّل إليه بضعفه وعجزه، وفقره وعدم قدرته على تحصيل مصالحه، ودفع الأضرار عن نفسه، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، لما في ذلك من إظهار التَّضرُّع والمسكنة والافتقار لله الَّذي هو حقيقة كلِّ عبدٍ»[1] اهـ.

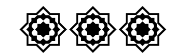
ويُلَاحَظُ أنَّ الطَّالب السَّائل تارةً يسأل بصيغة الطَّلب، وتارةً يسأل بصيغة الخبر؛ إمَّا بوصف حاله من فقرٍ واحتياجٍ وضعفٍ، وإمَّا بوصف حال المسؤول من غنًى وكمالٍ ومَنٍّ وعطاءٍ، وإمَّا بوصف الحالين: حال السَّائل وحال المسؤول.

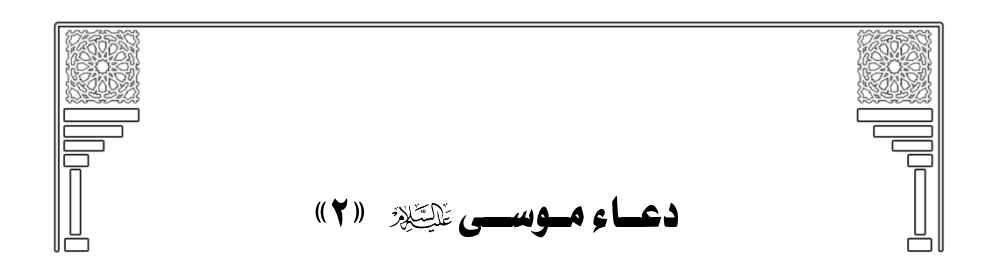
وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصف في هذه الدَّعوة حاله، وأظهر فقره واحتياجه إلى ربِّه ومولاه، وهو يتضمَّن سؤاله سبحانه إنزالَ الخير إليه، وموالاةَ المَنِّ عليه.

---

(١) «تيسير اللَّطيف المنَّان» (ص١٣٢).

وقد أجابه الله فيما سأل، فوالى المَنَّ عليه، وأجزل له العطاء، وبقي عليه السلام في مَدْيَنَ في أمنٍ وعافيةٍ، وفي خيرٍ ورزقٍ إلى أن اصطفاه الله واجتباه رسولًا أمينًا، ونبيًّا كريمًا، صلواتُ الله وسلامُه وبركاتُه عليه، وعلى جميع النَّبيِّين.





دعاء موسى عليه السلام (٢)

ومن دعاء موسى عليه السلام: أنَّ الله تعالى لمَّا بعثه إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى الإسلام، سأل ربَّه y أن يفتح عليه في تبليغ الرِّسالة وبيان الدِّين، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة طه].

وهذا دعاءٌ عظيمٌ في مقامٍ عظيمٍ، كما قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «هذا سؤالٌ من موسى عليه السلام لربِّه y أن يشرح له صدرَه فيما بعثه به؛ فإنَّه قد أمره بأمرٍ عظيمٍ، وخَطبٍ جسيمٍ، بعثه إلى أعظم ملكٍ على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرِهم وأشدِّهم كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم تمرُّدًا، بلغ من أمره أنِ ادَّعى أنَّه لا يَعرِفُ اللهَ، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره»[1].

والدُّعاء بشرح الصَّدر له أهميَّةٌ كبيرةٌ في هذا الشَّأن؛ فإنَّه قوَّةٌ معنويَّةٌ، يستعين بها نبيُّ الله موسى عليه السلام على أداء تلك المهمَّة الكبرى؛ فإنَّه مَدعاةٌ للصَّبر

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٦).

واحتمال المشاقِّ، والإقبال على الدَّعوة بهمَّةٍ ونشاطٍ، وأمَّا ضيق الصَّدر والسَّآمة؛ فهي من أسباب الضَّعف وخَور العزيمة، ومَنْ هذا حاله لا يصلح لهداية الخلق ودعوتهم إلى الله تعالى، كما قال الله سبحانه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومع سعة الصَّدر وانشراحه لا بدَّ من تيسير الله تعالى وتوفيقه، ولهذا قال عليه السلام في هذا الدُّعاء: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾، قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «أي: إن لم تكن أنت عَوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلَّا فلا طاقة لي بذلك»[١].

وقال ابن سِعدي رحمه الله: «ومن تيسير الأمر أن ييسَّر للدَّاعي أن يأتي جميعَ الأمور من أبوابها، ويخاطب كلَّ أحدٍ بما يناسِبُ له، ويدعوه بأقرب الطُّرق الموصِلة إلى قبول قوله»[٢].

ثمَّ إنَّ من أهمِّ وسائل الدَّعوة إلى الله قدرةَ الدَّاعي على البيان والإفهام بالقول، ولهذا دعا موسى عليه السلام ربَّه أن يفتح عليه بذلك، في قوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾، وقد ذكر المفسِّرون أنَّه كان في لسان موسى ثِقَلٌ لا يكاد يُفْهَمُ عنه الكلام، فسأل الله تعالى أن يحُلَّ عقدةً من لسانه ليفهموا قوله، وليحصُلَ المقصودُ التَّامُّ من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

ولذا ذكر العلَّامة ابن سِعدي رحمه الله من جملة الفوائد المستفادة من قصَّة

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٦).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أنَّ الفصاحة والبيان ممَّا يعين على التَّعليم، وعلى إقامة الدَّعوة، لهذا طلب موسى من ربِّه أن يحُلَّ عقدةً من لسانه ليفقهوا قولَه، وأنَّ اللَّثغة لا عيبَ فيها إذا حصل الفهم للكلام، ومن كمال أدب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ربِّه أنَّه لم يسأل زوالَ اللَّثغة كلَّها، بل سأل إزالة ما يحصل به المقصود»[1]، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «الرُّسل إنَّما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقيَّة»[2].

ثمَّ قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾.

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا أيضًا سؤالٌ من موسى في أمرٍ خارجيٍّ عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له»[3]، وجاء في موضعٍ آخر من القرآن الكريم بيانُ التَّعليل لهذا السُّؤال من موسى، وهو ما حكاه الله عنه من قوله: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [سُورَةُ القَصَصِ]، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربَّه أن يجعل أخاه هارون شريكًا له في النُّبوَّة وتبليغ الرِّسالة، وهذا من وجاهته عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ربِّه، حين شفع أن يوحيَ اللهُ إلى أخيه، وطلب موسى أن يكون معينُهُ من أهله لأنَّه من باب البرِّ، وأحقُّ ببرِّ الإنسان قرابته، ويقال: إنَّه لم يكن أحدٌ على

---

(١) «تسير اللَّطيف المنَّان» (ص١٣٦).

(٢) أورده ابن كثيرٍ في «البداية والنِّهاية» (٢/ ٦٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٧).

أخيه أسعدَ ولأخيه أنفع من موسى لهارون[1]، ثمَّ ذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الفائدة في سؤاله هذا فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

قال العلَّامة ابن سِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «علم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أنَّ مدار العبادات كلِّها والدِّينِ على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البرِّ والتَّقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التَّسبيح والتَّهليل وغيره من أنواع العبادات»[2]، وبيَّن أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الذِّكر كما أنَّه هو الَّذي خلق الله الخلق لأجله، والعباداتُ كلُّها ذكرٌ لله، فكذلك الذِّكر يعين العبد على القيام بالطَّاعات وإن شقَّت، ويهوِّن عليه الوقوف بين يدي الجبابرة، ويخفِّف عليه الدَّعوة إلى الله تعالى، وقد قال الله تعالى لموسى حين بعثه: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾ [سُورَةُ طه][3]، أي: لا تفتُرا ولا تضعُفا عن ذكري؛ فإنَّه لكما سلاحٌ وعُدَّةٌ.

وختم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءه لربِّه في هذه الأمور كلِّها بقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥] أي: «تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كلِّ الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمُنَّ علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك»[4]، فاستجاب الله تعالى دعاء نبيِّه وكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال y :

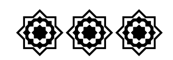
(١) «تفسير أبي المظفَّر السَّمعاني» (٣/ ٣٢٨).

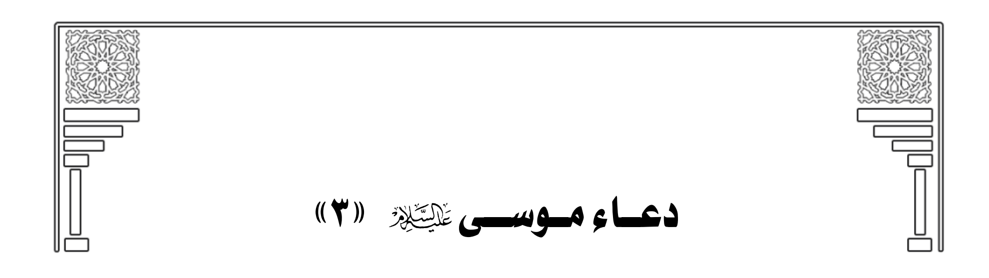
(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).

(٣) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣٥).

(٤) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).

﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [سُورَةُ طه] أي: أُعْطِيتَ جميعَ ما سألتَ، والسُّؤْل: الطَّلِبَةُ والمرغوب فيه، وقال تعالى جوابًا لموسى أيضًا على سؤاله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ [سُورَةُ القَصَصِ]، فأخبر سبحانه أنَّه استجاب له الدُّعاء، وحقَّق له الرَّجاء، فعضَّده وقوَّاه بأخيه، وجعل لهما سلطانًا على فرعون وقومه فلا سبيل لهم إلى أذاهما بما أيَّدهما به من الآيات السَّاطعات، وجعل الغَلبة والنَّصر والعاقبة الحميدة لهما ولأتباعهما، فنِعْمَ المولى هو سبحانه، ونعم النَّصير.





دعاء موسى عليه السلام (٣)

لا يزال الحديث ماضيًا عن دعاء نبيِّ الله موسى عليه السلام، **فمن دعائه:** أنَّه لَمَّا بلغه تهديدُ فرعون له بالقتل التجأ إلى ربِّه مستعيذًا به من بأس فرعون وجبروته، كما حكى الله تعالى ذلك حيث قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة غافر].

وقول فرعون هذا ـ قبَّحه الله ـ من أعجب ما يكون، وهو من التَّمويه والتَّرويج للباطل الَّذي هو عليه، ولهذا يقال في المثل ـ على سبيل التَّهكُّم ـ: «صار فرعون مذكِّرًا»، وهذا تضليلٌ منه؛ فإنَّ فرعون يزعم في كلامه هذا أنَّه يخاف على النَّاس أن يُضِلَّهم موسى عليه السلام، فصار واعظًا يشفق على النَّاس من موسى ويخشى عليهم منه، من أن يبدِّل على النَّاس دينهم، أو أن يظهر في الأرض الفساد، ويزعم لنفسه أنَّه إنَّما يريد بالنَّاس الخيرَ وهدايتَهم إلى سبيل الرَّشاد، وهذا شأن دعاة الباطل وأئمَّة الضَّلال في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وقد قال

فرعون ذلك مع أنَّه من شرِّ خلق الله تعالى وأشدِّهم فسادًا وخبثًا، ومكرًا بالنَّاس واستخفافًا بالعقول، وتكبُّرًا على الحقِّ وتعاليًا عليه.

ولهذا قال موسى عليه السلام داعيًا الله تعالى ومنبِّهًا النَّاس: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

قال الإمام الطَّبري رحمه الله في معنى هذا الدُّعاء: «إنِّي استجرت ـ أيُّها القوم ـ بربِّي وربِّكم من كلِّ متكبِّرٍ عليه، تكبَّر عن توحيده والإقرار بألوهيَّته وطاعته، لا يؤمن بيومٍ يحاسب الله فيه خلقه فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء، وإنَّما خصَّ موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الاستعاذةَ بالله ممَّن لا يؤمن بيوم الحساب؛ لأنَّ من لم يؤمن بيوم الحساب مصدِّقًا، لم يكن للثَّواب على الإحسان راجيًا، ولا للعقاب على الإساءة وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفًا، ولذلك كانت استجارته من هذا الصِّنف من النَّاس خاصَّةً»(١).

وقد حكى الله تعالى عن نبيِّه موسى عليه السلام نحو هذا الدُّعاء أيضًا في قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾ [سورة الدخان].

قال الإمام الطَّبري: «يقول: وإنِّي اعتصمت بربِّي وربِّكم، واستجرت به منكم أن تَرْجُمُونِ»(٢)، قال: «والرَّجم قد يكون قولًا باللِّسان، وفعلًا باليد،

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٣١٠ ـ ٣١١).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣١).

والصَّواب أن يقال: استعاذ موسى بربِّه من كلِّ معاني رجمهم الَّذي يصل منه إلى المرجوم أذًى ومكروهٌ، شتمًا كان ذلك باللِّسان، أو رجمًا بالحجارة باليد»[1].

ويستفاد من هذا السِّياق الكريم أنَّ من كان متكبِّرًا غير مؤمنٍ بيوم الحساب يحمله تكبُّره، وعدم إيمانه على الشَّرِّ والفساد، وأنَّ على المؤمن أن يستعيذ بالله من شرِّ هذا الصِّنف من الخلق، وقد ثبت في «سنن أبي داود» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قومًا قال: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ**»[2].

وممَّا حكى الله تعالى من دعاء موسى عليه السلام: استغفاره لنفسه ولأخيه هارون، كما قال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ].

وكذلك استغفاره ودعاؤه لنفسه ولقومه: كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٥)، و«سنن أبي داود» (١٥٣٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٠٦).

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ].

واشتمل دعاؤه في هذا المقام على فصلَيْن، كما أشار إليهما الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

الفصل الأوَّل من الدُّعاء: فيه دفع المحذور، وهو قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾، فهذا دعاءٌ بترك المؤاخذة بالذَّنب، والوقاية من ذلك.

والفصل الثَّاني من الدُّعاء: في تحصيل المقصود، وهو قوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة[1].

وقد مدح الله تعالى في كتابه من يدعوه سبحانه بهذا الدُّعاء المشتمل على طلب الحسنة في الدُّنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

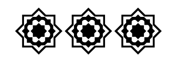
قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فجمعت هذه الدَّعوة كلَّ خيرٍ في الدُّنيا، وصرفت كلَّ شرٍّ؛ فإنَّ الحسنة في الدُّنيا تشمل كلَّ مطلوبٍ دنيويٍّ من عافيةٍ ودارٍ رحبةٍ، وزوجةٍ حسنةٍ، ورزقٍ واسعٍ، وعلمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، ومَركبٍ هنيءٍ، وثناءٍ جميلٍ، إلى غير ذلك ممَّا اشتملت عليه عبارات المفسِّرين، ولا منافاة بينها؛ فإنَّها كلَّها مندرجة في الحسنة في الدُّنيا، وأمَّا الحسنة في الآخرة

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٧٨).

فأعلى ذلك دخول الجنَّة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصَّالحة، وأمَّا النَّجاة من النَّار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدُّنيا من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشَّهوات والحرام»[1].

ولهذا وردت السُّنَّة المطهَّرة بالتَّرغيب في هذا الدُّعاء، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان أكثر دعوةٍ يدعو بها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» متَّفقٌ عليه[2]، وقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبنا ورجعنا، وأنبنا إليك.



(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٥_٣٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٩٠).



دعاء سليمان عليه السلام

من دعوات الأنبياء في القرآن: دعوةُ نبيِّ الله سليمان عليه السلام الَّذي أعطاه الله تعالى النُّبوَّة والملك، وعلَّمه لغة الطَّير.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النمل]، وكان عليه السلام شاكرًا لنعمة الله عليه؛ يدعو ربَّه تعالى، ويبتهل إليه أن يُلهِمه شكر هذا الفضل المبين، والاستعانة به على العمل الصَّالح الَّذي ينال به رضوان الله تعالى ورحمته بدخول الجنَّة مع عباد الله الصَّالحين، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النمل].

فذكر تعالى ـ في هذه الآيات ـ جانبًا من ملك سليمان عليه السلام، وما كان

يدعو الله تعالى به، وهو قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وهذا من أجمع الأدعية، ومن أنسبها لحاله عَلَيْهِ السَّلَامُ وما أعطاه الله من الملك العظيم والفضل المبين.

فقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ طلبٌ من الله أن يقيِّضه للشُّكر على ما أنعم به عليه، وعلى ما خصَّه به من المزيَّة على غيره من تعليمِهِ منطقَ الطَّير، وإسماعِهِ قولَ النَّملة.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فيه أنَّ النِّعمة على الوالدين نعمةٌ على الولد، ولهذا سأل ربَّه التَّوفيق للقيام بشكر نعمته الدِّينيَّة والدُّنيويَّة عليه، وعلى والديه، والمراد بوالديه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمُّه، وكانت من العابدات الصَّالحات(1).

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: وفِّقني أن أعمل صالحًا ترضاه، لكونه موافقًا لأمرك، خالصًا لوجهك، سالمًا من المفسدات والمنقصات.

وينبغي التَّأمُّل لقوله: ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ فإنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ العمل قد يكون صالحًا في نظر صاحبه ولا يرضاه الله تعالى، لكونه غيرَ موافقٍ لأمره سبحانه، أو لكونه غير خالصٍ لوجهه y ، فلا يرضى الله تعالى من الأعمال إلَّا ما كان موافقًا لشريعته، خالصًا لوجهه.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: إذا توفَّيتني

---

(1) انظر: «البداية والنِّهاية» لابن كثير (2/ 327).

فألحقني بالصَّالحين من عبادك، والرَّفيق الأعلى من أوليائك، بمعنى أَدخِلْني في جملتهم، وأَثْبِتِ اسمي مع أسمائهم، واحشرني في زمرتهم، قال ابن عبَّاسٍ ﵄: «يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن بعدهم من النَّبيِّين»[1].

ومن دعاء نبيِّ الله سليمان ﵇: ما حكاه الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سُورَةُ صٓ].

فأخبر تعالى أنَّه ابتلى عبده ونبيَّه سليمان ﵇ بأن ألقى على كرسيِّه جسدًا، ولعلَّ المراد به ما ثبت في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ سُلَيْمَانُ بنُ دَاوُدَ ﵉: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**»[2]، فابتلاه الله بشقِّ ولدٍ، وقيل: إنَّ الجسد الَّذي ألقي على كرسِيِّه هو صخر الجنِّي، الَّذي تسلَّط على ملكه أربعين يومًا يحكم بين النَّاس، في قصَّةٍ طويلةٍ جاءت في أخبار بني إسرائيل، ولا يُعتمَدُ عليها.

---

(١) أورده البغوي في «تفسيره» (٣/ ٤١١).

(٢) البخاري (٢٨١٩)، ومسلم (١٦٥٤).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: تاب إلى ربِّه، ومِن ثمَّ قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

فسأل الله مغفرة ذنبه، وتوسَّل إليه باسمه الوهَّاب أن يهب له ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده من البشر.

وقد استجاب الله دعوته، فغفر له، وأعطاه ملكًا لم يحصل لأحدٍ من بعده، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة ص]، فزاده الله على المغفرة أمرين: الزُّلفى، وهي درجة القرب منه، والثَّاني: حسن المآب، وهو حسن المنقلب، وطِيب المأوى عند الله[(١)].

وقد ثبت في الحديث في «سنن النَّسائي» و«ابن ماجه» عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: **«أَنَّ سُلَيْمَانَ بنَ دَاوُدَ ﷺ لَمَّا بَنَى بَيْتَ المَقْدِسِ سَأَلَ اللهَ Y خِلَالًا ثَلَاثَةً: سَأَلَ اللهَ Y حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ Y مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ Y حِينَ فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ المَسْجِدِ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»**[(٢)]، وقوله: **«لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ**

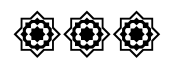
---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيِّم (ص٢١٧).

(٢) «سنن النَّسائي (٦٩٢)، وابن ماجه (١٤٠٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح النَّسائي» (١/ ٢٢٩).

فِيهِ» أي: لا يحرِّكه إلَّا ذلك.

ونسأل الله أن يفُكَّ أسرَه من أيدي اليهود، وأن يُطلِقَ قَيْدَه، وأن يرُدَّه للمسلمين، وأن يقِرَّ أعينهم بالصَّلاة فيه مطهَّرًا من رجس اليهود، إنَّه سبحانه خير مسؤولٍ، ونعم المأمول، وهو حسبنا ونعم الوكيل.





دعاء زكريَّا عليه السلام

إنَّ من دعوات الأنبياء في القرآن ما جاء في قصَّة نبيِّ الله زكريَّا عليه السلام أنَّه دعا ربَّه y أن يرزقه ولدًا صالحًا، يكون وارثًا له في العلم والنُّبوَّة والقيام بالدِّين، ولم يكن عليه السلام قد رُزق ولدًا في حياته، وكانت امرأته عاقرًا، وتقدَّم به السِّنُّ، لكنَّه على علمٍ بكمال قدرة الله، وأنَّه سبحانه إذا أراد شيئًا كان، ولو لم تتوفَّر أسبابه المعلومة في العادة، إذ هو خالق الأسباب والمسبَّبات، وبيده مقاليد كلِّ شيءٍ وخزائنه.

قال الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾ [سورة مريم].

وقد تضمَّن هذا الدُّعاء العظيم الَّذي دعا به زكريَّا عليه السلام ذكرَ حالته، وشدَّةَ رغبته، وكمال أدبه مع ربِّه، وثقته التَّامَّة بقدرته ورحمته به خاصَّةً، وبعباده عامَّةً.

قوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريًّا.

وقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، النِّداء هنا هو الدُّعاء والرَّغبة.

وقوله: ﴿نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ أي: سرًّا لا علنًا، وهذا الثَّناء عليه بكون دعائه خفيًّا فيه دلالةٌ على أنَّ إخفاء الدُّعاء أفضل من إظهاره وإعلانه.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ أي: ضَعُفَ العظم منِّي ورَقَّ من الكبَر، قال العلَّامة محمَّد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّما ذكر ضعف العظم؛ لأنَّه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهَن دلَّ على ضعف جميع البدن؛ لأنَّه أشدُّ ما فيه وأصلبُهُ، فوهنه يستلزم وهنَ غيره من البدن»[1].

وقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ أي: انتشر الشَّيب في الرَّأس؛ لأنَّ الشَّيبَ دليلُ الضَّعف والكبَر، ورسول الموت ورائده ونذيره.

قال الحافظُ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد من هذا الإخبارُ عن الضَّعف والكبَر، ودلائله الظَّاهرة والباطنة»[2].

ونادى ربَّه بذلك بيانًا لحاله متوسِّلًا إليه سبحانه بافتقاره إليه.

قال العلَّامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتوسَّل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحبِّ الوسائل إلى الله؛ لأنَّه يدلُّ على التَّبرِّي من الحول والقوَّة، وتعلُّق

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٠٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠٦).

القلب بحول الله وقوَّته»[1].

وقوله: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ أي: لم أَشْقَ يا ربِّ بدعائك؛ لأنَّك لم تخيِّبْ دعائي، بل كنت تجيب دعوتي، وتقضي حاجتي، فهو توسُّلٌ إليه بما سلف من إجابته وإحسانه، طالبًا أن يُجارِيَه على عادته الَّتي عوَّده من قضاء حوائجه، وإجابته إلى ما سأله[2].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استفيد من هذه الآيات آداب الدُّعاء، وما يستحبُّ فيه، فمنها: الإسرار بالدُّعاء، لقوله: ﴿خَفِيّٗا﴾، ومنها: استحباب الخضوع في الدُّعاء، وإظهار الذُّلِّ، والمسكنة والضَّعف، لقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، ومنها: التَّوسُّل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده الجميلة لقوله: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾»[3].

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ أي: وإنِّي خِفت من يتولَّى على بني إسرائيل من بعد موتي ألَّا يقومَ بدينك حقَّ القيام، ولا يدعوَ عبادك إليك، وهذا فيه شفقته ونصحه وحرصه على قيام الدِّين، والخوف من ضياعه.

وقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ أي: وكانت زوجتي لا تلِدُ منذ شبابها.

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيِّم (٣/ ٥٠٤).

(٣) «محاسن التَّأويل» (١١/ ٤١٢٧).

وقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: ولدًا صالحًا معينًا.

قال ابن سعدي: «وهذه الولاية ولاية الدِّين، وميراث النُّبوَّة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾»(١)، فالإرث المذكور هنا إنَّما هو إرث علمٍ ونبوَّةٍ ودعوةٍ إلى الله y، لا إرثُ مال.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: اجعل هذا الَّذي تهبه لي مرضيًّا، ترضاه أنت، ويرضاه عبادك دينًا وخُلُقًا وخَلْقًا.

قال العلَّامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحاصل أنَّه سأل الله ولدًا ذكرًا صالحًا يبقى بعد موته، ويكون وليًّا من بعده، ويكون نبيًّا مرضيًّا عند الله وعند خَلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولدًا صالحًا جامعًا لمكارم الأخلاق، ومحامد الشِّيَم»(٢).

ومن الآيات المشتملة على ذكر دعاء زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا: قول الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [سُورَةُ آل عِمۡرَان]، وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاء]، وقد أخبر الله تعالى أنَّه استجاب لدعاء نبيِّه زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فجعل امرأته وَلُودًا بعد أن كانت عاقِرًا، ورزقه ولدًا ذكرًا صالحًا سمَّاه يحيى وجعله نبيًّا من الأنبياء.

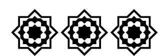
---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩).

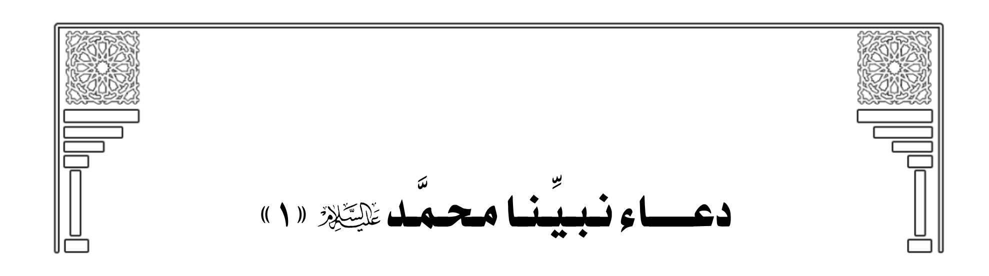
(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩ ـ ٥٧٠).

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ]، وقال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ]، وقال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود أنَّ الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقصَّ على النَّاس خبر زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كان من أمره حين وهبه الله ولدًا على الكبَر، وكانت امرأته عاقرًا في حال شبيبتها، وقد أسنَّت أيضًا، حتَّى لا ييأس أحدٌ من فضل الله ورحمته، ولا يقنط من فضله تعالى وتقدَّس»[1].



(١) «البداية والنِّهاية» (٢/ ٣٩٥).



دعـــاء نبيِّنا محمَّد عليه السلام «١»

في القرآن الكريم مواضع عديدةٌ يأمر الله تعالى فيها نبيَّه ورسوله محمَّدًا ﷺ بدعائه دعاء ذكرٍ وثناءٍ، ودعاء طلبٍ ومسألةٍ، ومن المناسب للمسلم والمفيد له فائدةً عظيمةً أن يقف عليها ليتعلَّم منها الهدي القويم، والنَّهج السَّديد، والمسلك الرَّشيد في ذكر الرَّبِّ y ودعائه.

❊ **ومن هذه المواضع قول الله تعالى:** ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ].

ففيها الأمر بذكر الله y خيفةً مع التَّضرُّع والإلحاح، ولا سيَّما في أوَّل النَّهار وآخره، والتَّحذيرُ من الغفلة وسبيل الغافلين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ وقد اختار أنَّ المراد بقوله: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾ أي: باللِّسان مع القلب ـ: «ومعلومٌ أنَّ ذكرَ الله المشروع بالغدوِّ والآصال في الصَّلاة، وخارج الصَّلاة هو باللِّسان مع القلب، مثل صلاتَيِ الفجر والعصر، والذِّكر المشروع عقب الصَّلاتَيْن، وما أمر به النَّبيُّ ﷺ، وعلَّمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة، من عمل اليوم واللَّيلة

المشروعة طرفي النَّهار بالغدوِّ والآصال»[1].

❊ **ومن الآيات الَّتي فيها أمر الله لنبيِّه ﷺ بالدُّعاء:** قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

وهذا أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ أن يدعو بهذا الدُّعاء معظِّمًا لربِّه y متوكِّلًا عليه، وشاكرًا له، ومفوِّضًا إليه.

«فصدَّر الآية سبحانه بتفرُّده بالملك كلِّه، وأنَّه هو سبحانه هو الَّذي يؤتيه من يشاء، وينزعه ممَّن يشاء لا غيره.

فالأوَّل: تفرُّده بالملك.

والثَّاني: تفرُّده بالتَّصرُّف فيه، وأنَّه سبحانه هو الَّذي يُعِزُّ من يشاء بما يشاء من أنواع العزِّ، ويذلُّ من يشاء بسلب ذلك العزِّ عنه، وأنَّ الخير كلَّه بيديه ليس لأحدٍ معه منه شيءٌ.

ثمَّ ختمها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فتناولت الآية ملكه وحده، وتصرُّفه، وعموم قدرته، وتضمَّنت أنَّ هذه التَّصرُّفات كلَّها بيده، وأنَّها كلَّها خيرٌ، فسَلَبَهُ المُلْكَ عمَّن يشاء، وإذلالُه من يشاء خيرٌ، وإن كان شرًّا

(١) «دقائق التَّفسير» (٣/ ١٦٦).

بالنِّسبة إلى المسلوب الذَّليل؛ فإنَّ هذا التَّصرُّفَ دائرٌ بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كلُّه خيرٌ يُحْمَدُ عليه الرَّبُّ، ويُثْنَى عليه به، كما يُحْمَدُ ويُثْنَى عليه بتنزيهه عن الشَّرِّ، وأنَّه ليس إليه» قاله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(1).

وقال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره للآية: «وفي هذه الآية تنبيهٌ وإرشادٌ إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمَّة؛ لأنَّ الله حوَّل النُّبوَّة من بني إسرائيل إلى النَّبيِّ العربي القرشي المكِّي الأمِّي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثَّقلَيْن الإنس والجنِّ، الَّذي جمع اللهُ فيه محاسن من كان قبله، وخصَّه بخصائص لم يعطها نبيًّا من الأنبياء ولا رسولًا من الرُّسل في العلم بالله وشريعته، وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشْفِه عن حقائق الآخرة، ونشر أمَّته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشَّرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدِّين، ما تعاقب اللَّيل والنَّهار»(2).

❊ **ومن الآيات الَّتي فيها أمره ﷺ بالدُّعاء قوله تعالى:** ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ].

(1) «شفاء العليل» لابن القيِّم (ص١٧٨ ـ ١٧٩).

(2) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢ ـ ٢٣).

وقد أمر الله تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بهذا الدُّعاء بعدما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمَّة لهم في حبِّهم الشِّرك، ونفرتهم عن التَّوحيد.

والمعنى: ادع ـ أيُّها النَّبيُّ ـ اللهَ وحده لا شريك له، الَّذي هو فاطر السَّموات والأرض، أي: خالقهما على غير مثالٍ سبق، ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السِّرِّ والعلانية، ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم، وستفصل بينهم يوم معادهم وقيامهم من قبورهم»[1].

وفي هذا تعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى، والدُّعاء بأسمائه الحسنى، والاستعانة بالتَّضرُّع والابتهال على دفع كيد العدوِّ، والسَّلامة من شرورهم.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من اللَّيل افتتح صلاته فقال: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّموات وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ؛ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[2].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٧٠).

❁ **ومن الدُّعاء الَّذي أمر به النَّبيُّ ﷺ**: ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]، ومعنى الآية: فإن أعرض الكفَّار عمَّا جئتهم به من الشَّريعة العظيمة، المطهَّرة الكاملة الشَّاملة؛ فقل أنت هذا الدُّعاء، وهو:

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيَّ الله.

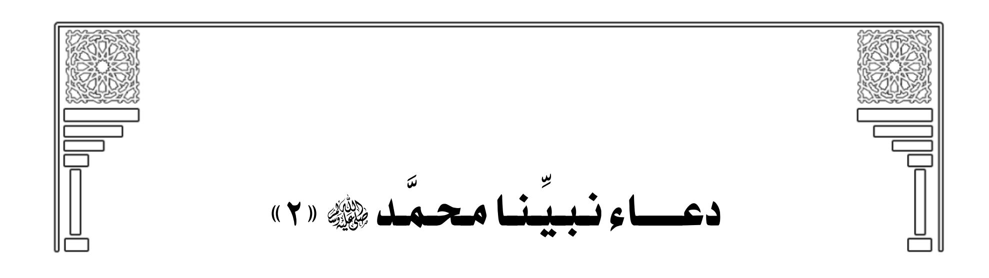
﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُّ عليه، وإليه فوَّضت جميع أموري.

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كلِّ شيءٍ وخالقه؛ لأنَّه ربُّ العرش العظيم الَّذي هو سقف المخلوقات، وخصَّ العرش بالذِّكر؛ لأنَّه أعظم المخلوقات، فيدخل فيه ما دونه من باب أولى.

وفي الحديث عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: «من قال في كلِّ يومٍ حين يصبح وحين يمسي: «**حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ**» سبعَ مرَّاتٍ، كفاه الله y ما أهمَّه من أمر الدُّنيا والآخرة» رواه ابن السُّني في «عمل اليوم واللَّيلة» مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ، ورواه غيره موقوفًا[1]، والموقوف رجال إسناده ثقاتٌ، ومثل هذا لا يقال من قِبَلِ الرَّأي والاجتهاد، فسبيله سبيل المرفوع.

(١) عمل اليوم والليلة (٧١)، وصححه الألباني «الضعيفة» (٥٢٨٦) عن أبي الدرداء موقوفا.



دعـــاء نبيِّنا محمَّد ﷺ «٢»

❊ **ومن المواضع الَّتي ورد فيها أمر النَّبيِّ ﷺ بذكر الله ودعائه:** قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [سُورَةُ الإسْرَاءِ].

وهذا دعاء ثناءٍ وتمجيدٍ، أمر الله تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بأن يقوله توحيدًا لربِّه سبحانه، وتنزيهًا له عن كلِّ ما لا يليق به، وقد جاء في الأثر عن محمَّد ابن كعب القرظي أنَّه كان يقول: «إنَّ اليهود والنَّصارى قالوا: اتَّخذ الله ولدًا، وقالت العرب: لبَّيك لا شريك لك، إلَّا شريكًا هو لك، وقال الصَّابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذَلَّ اللهُ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾»[1].

وفي الآية بيانُ استحقاق الله للحمد؛ لاختصاصه سبحانه بنُعوت الكمال، وصفات الجلال، فهو سبحانه المنزَّه عن اتِّخاذ الولد، المتفرِّد بالملك

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٩٠).

لا شريك له، الغنيُّ عن عباده، لا يحتاج إلى أحدٍ منهم، ولا يتولَّى أحدًا منهم ليتعزَّز به من ذِلَّةٍ، أو ليتكثَّر به من قِلَّةٍ، وهو سبحانه الكبير المتعال.

❊ **ومن المواضع الَّتي فيها أمره ﷺ بالدُّعاء**: قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ [سُورَةُ الإِسۡرَاءِ].

وهذا دعاء مسألةٍ، أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقوله، وهو متضمِّنٌ سؤال الله تعالى أن يجعل مدخله ومخرجه على الصِّدق، وذلك في قوله: ﴿رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾.

قال العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحقيقة الصِّدق في هذه الأشياء هو الحقُّ الثَّابت المتَّصل بالله الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدُّنيا والآخرة.

فمُدخَل الصِّدق ومُخْرَج الصِّدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا لله وفي مرضاته، بالظَّفر بالبُغية وحصول المطلوب، ضدَّ مُخرِجِ الكذب ومُدخَلِه الَّذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتةٌ يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدرٍ، ومُخْرَج الصِّدق كمُخْرَجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة، وكذلك مُدخَله ﷺ المدينة كان مُدْخَلَ صدقٍ، بالله ولله وابتغاء مرضات الله، فاتَّصل به التَّأييد والظَّفر والنَّصر، وإدراك ما طلبه في

الدُّنيا والآخرة، بخلاف مُدْخَلِ الكذب الَّذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب؛ فإنَّه لم يكن بالله ولا لله، بل كان محادَّةً لله ولرسوله، فلم يتَّصل به إلَّا الخذلان والبوار، وكذلك مُدْخَل اليهود من دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة؛ فإنَّه لَمَّا كان مُدْخَل كذبٍ أصابهم معه ما أصابهم.

فكلُّ مُدخَلٍ ومُخْرَجٍ كان بالله ولله، فصاحبه ضامنٌ على الله، فهو مُدْخَل صدقٍ ومُخْرَج صدقٍ.

وكان بعض السَّلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السَّماء وقال: «اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك»، يريد أن لا يكون المخرج مخرج صدقٍ.

ولذلك فُسِّرَ مدخل الصِّدق ومخرجه بخروجه ﷺ من مكَّة ودخوله المدينة، ولا ريب أنَّ هذا على سبيل التَّمثيل؛ فإنَّ هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه ﷺ، وإلَّا فمداخله كلُّها مداخل صدقٍ، ومخارجه مخارج صدقٍ، إذ هي لله وبالله، وبأمره ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحدٌ من بيته ودخل سوقه، أو مدخلًا آخر إلَّا بصدقٍ، أو بكذبٍ، فمخرج كلِّ واحدٍ ومدخله لا يعدو الصِّدق والكذب، والله المستعان»[1] اهـ.

---

(١) «مدارج السَّالكين» (٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

كما تضمَّن هذا الدُّعاء العظيم سؤال الله تعالى بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾.

قال قتادة: «إنَّ نبيَّ الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلَّا بسلطانٍ، فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله y، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، وإنَّ السُّلطان رحمةٌ من الله جعلها بين أَظْهُرِ عباده، لولا ذلك لأغار بعضُهم على بعضٍ، فأكل شديدُهم ضعيفَهم»[1].

وقال مجاهدٌ: «﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾: حجَّةً بيِّنةً»[2].

ورجَّح الإمام ابن جرير الطَّبري والحافظ ابن كثيرٍ قولَ قتادة في المراد بسؤاله السُّلطان النَّصير، قال الحافظ ابن كثيرٍ: «لأنَّه لا بدَّ مع الحقِّ من قهرٍ لمن عاداه وناوأه، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [سُورَةُ الحَدِيدِ].

وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ**»[3] أي: ليمنع

---

(١) رواه الطَّبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩).

(٢) رواه الطَّبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩).

(٣) أخرج نحوه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٠٨)، عن عمر بن الخطَّاب ﷺ موقوفًا، وإسناده تالفٌ؛ فيه الهيثم بن عدي، وهو كذَّابٌ متروكٌ، وأخرج معناه ابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (١/ ١١٨) عن عثمان بن عفَّان ﷺ، وإسناده معضلٌ.

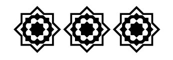
بالسُّلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثيرٌ من النَّاس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتَّهديد الشَّديد، وهذا هو الواقع»[1] اهـ.

وخلاصة هذا الدُّعاء أنَّه سؤالٌ لله تعالى بأن يجعله على الحقِّ الثَّابت في جميع أحواله في مدخله ومخرجه، وأن يجعل له سلطانًا وقوَّةً ينصر به الحقَّ ويظهره على كلِّ من خالفه.

❊ **ومن المواضع الَّتي فيها أمره ﷺ بالدُّعاء**: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [سُورَةُ الكَهْفِ].

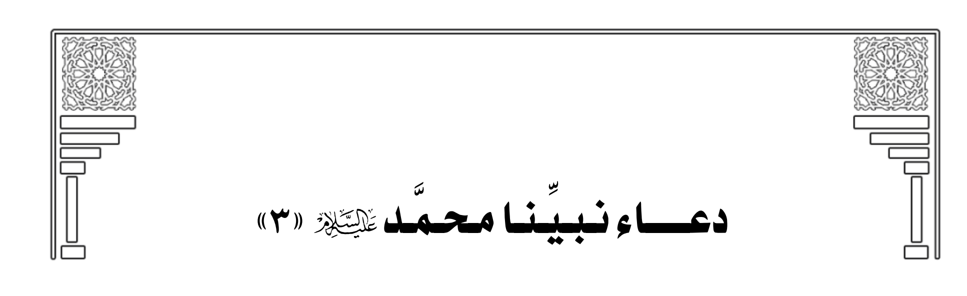
وهذا أمرٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ أن يسأل ربَّه ويتوجَّه إليه بأن يوفِّقه للصَّواب والرُّشد، فيقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: يثبِّتني على طريقٍ هو أقرب إليه وأرشد.

قال العلَّامة السِّعدي رَحِمَهُ اللهُ: «فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطُّرق المُوَصِّلةِ إلى الرَّشَدِ، وحريٌّ بعبدٍ تكون هذه حاله، ثمَّ يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرُّشد أن يُوفَّق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربِّه، وأن يُسدَّد في جميع أموره»[2] اهـ.



(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٠٩).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٥١).



دعـــاء نبيِّنا محمَّد ﷺ (٣)

❊ **ومن المواضع الَّتي أُمِرَ فيها النَّبيُّ الكريم ﷺ بدعاء الله:** قولُه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سُورَةُ طه].

قال الإمام الطَّبري: «يقول تعالى ذكره: وقل يا محمَّد ربِّ زدني علمًا إلى ما علَّمتني، أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم»[1].

وقال العلَّامة ابن سِعدي: «أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم؛ فإنَّ العلم خيرٌ، وكثرة الخير مطلوبةٌ، وهي من الله، والطَّريق إليها الاجتهاد والشَّوق للعلم، وسؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كلِّ وقتٍ»[2].

وقد ثبت في السُّنَّة عناية النَّبيِّ ﷺ بهذا الدُّعاء.

ففي التِّرمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا**»[3].

---

(١) «تفسير الطَّبري» (١٦/ ١٨١).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٩٩).

(٣) «جامع التِّرمذي» (٣٥٩٩)، و«سنن ابن ماجه» (٢٥١ و٣٨٣٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التِّرمذي» (٣/ ٤٧٦).

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يزلْ ﷺ في زيادةٍ حتَّى توفَّاه الله y »[1].

وكذلك لم يزل السَّلف الصَّالح ـ رحمهم الله ـ على عنايةٍ بهذه الدَّعوة، وممَّا ورد في ذلك ما رواه سعيد بن منصور وعبد بن حُمَيدٍ عن ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان يدعو: «اللَّهُمَّ زدني إيمانًا، وفقهًا، ويقينًا، وعلمًا»[2].

وعن معاويةَ بنِ قُرَّة، قال: كان أبو الدَّرداء يقول: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك إيمانًا دائمًا، وعلمًا نافعًا، وهديًا قيِّمًا، قال معاويةُ: فنرى أنَّ من الإيمان إيمانًا ليس بدائم، ومن العلم علمًا لا ينفع، ومن الهدي هديًا ليس بقيِّم»[3].

ويُرْوَى عن الإمام مالك بن أنسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: «من شأن ابن آدم ألَّا يعلم كلَّ شيءٍ، ومن شأن ابن آدم أن يعلم ثمَّ ينسى، ومن شأن ابن آدم أن يطلب من الله علمًا إلى علمه»[4].

❁ **ومن المواضع الَّتي أمر الله فيها نبيَّه ﷺ بالدُّعاء**: قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ].

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى آمرًا نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يدعو

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٣١٢).

(٢) أورده السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٦٠٢).

(٣) «الإيمان» لابن أبي شيبة (ص٤١).

(٤) ذكره أبو المظفَّر السَّمعاني في «تفسيره» (٣/ ٣٥٨).

بهذا الدُّعاء عند حلول النِّقم: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ]»[1].

ومعنى هذا الدُّعاء: أي: يا ربِّ إن أَرَيتَنِي ما يوعدون من العذاب، بأن تنزله بهم وأنا حاضرٌ شاهدٌ ذلك، يا ربِّ فلا تجعلني في جملة الظَّالمين المعذَّبين، بل أخرجني منهم ونجِّني من عذابهم.

«قال أهلُ التَّفسير: وهذا دليلٌ على أنَّه يجوز للعبد أن يسأل الله تعالى ما هو كائنٌ لا محالة»[2].

وبيان ذلك: أنَّه ﷺ كان يعلم أنَّ الله تعالى لا يجعله في القوم الظَّالمين إذا نزَّل بهم العذابُ، وقد أخبر تعالى في كتابه أنَّه لا ينزل بهم العذاب وهو فيهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ومع هذا أمر الرَّبُّ تعالى نبيَّه ﷺ بهذا الدُّعاء والسُّؤال ليعظم أجره، وليكون في كلِّ الأوقات ذاكرًا لربِّه، ملتجئًا إليه، لائذًا بجنابه.

ومن هذا القبيل قوله ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**»[3]، وله نظائر كثيرةٌ.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٨٥).

(٢) «تفسير أبي المظفَّر السَّمعاني» (٣/ ٤٨٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣)، والتِّرمذي (٣٢٣٣) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «صحيح التِّرمذي» (٣/ ٣١٧).

❊ **ومن المواضع أيضًا قوله تعالى:** ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ].

وهذا أمرٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ بالاستعاذة من الشَّياطين، ومن شرورهم؛ لأنَّهم لا تنفع معهم الحِيَل، ولا ينقادون بالمعروف، فالنَّجاة منهم بالاستعاذة بالله تعالى.

وقوله: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أعتصم بحَولك وقوَّتك، متبرِّئًا من حولي وقوَّتي، لكي تقيني من همزات الشَّياطين.

والهمزات: جمع هَمْزةٍ، كتَمراتٍ وتَمْرةٍ، وأصلها في اللُّغة: الدَّفع والنَّخس.

وفسِّرت همزات الشَّياطين: بنفخهم ونفثهم، وفسِّرت: بخنقهم، وهو الموتة الَّتي تشبه الجنون، وفسِّرت: بنزغاتهم ووساوسهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهمزات الشَّياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب»، قال: «وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ: إنَّ همزات الشَّياطين إذا أُفرِدَتْ دخل فيها جميع إصابتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنَّفخ والنَّفث كانت نوعًا خاصًّا، كنظائر ذلك»[1].

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، قال العلَّامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

«أي: أعوذ بك من الشرِّ الَّذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسِّهم، ومن الشرِّ الَّذي يصيبُني بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذةٌ من مادَّة الشَّرِّ كلِّه وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشَّيطان، ومن مسِّه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشَّرِّ، وأجاب دعاءه سلِم من كلِّ شرٍّ، ووفِّق لكلِّ خيرٍ»[1].

وقال العلَّامة الشَّنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والظَّاهر في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أنَّ المعنى: أعوذ بك أن يحضرني الشَّيطان في أمرٍ من أموري، كائنًا ما كان، سواءٌ كان ذلك وقتَ تلاوة القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، أو عند حضور الموت، أو غير ذلك من جميع الشُّؤون في جميع الأوقات»[2].

وقد ثبت في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول في صلاته بعد دعاء الاستفتاح: «**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**» رواه التِّرمذي[3].

وثبت في الحديث أيضًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

---

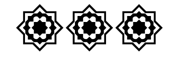
(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٥٣).

(٢) «أضواء البيان» (٥/ ٨١٩).

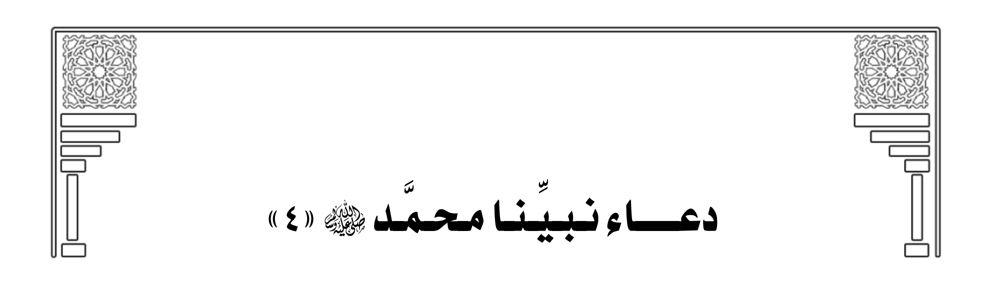
(٣) رواه أحمد في «المسند»، وأبو داود (٧٧٥)، و«جامع التِّرمذي» (٢٤٢)، وابن ماجه (٨٠٧) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «صحيح التِّرمذي» (١/ ١٤٩).

كان رسول الله ﷺ يعلِّمنا كلماتٍ نقولهنَّ عند النَّوم من الفزع: «**بِسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**» رواه أحمد وأبو داود والتِّرمذي[1].

والأحاديث الواردة في التَّعوُّذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم كثيرةٌ، أعاذنا الله منه، ومن همزه ونفخه ونفثه.



(١) «المسند» (٢/ ١٨١)، «سنن أبي داود» (٣٨٩٣)، و«جامع الترمذي» (٣٥٢٨) واللفظ له، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠١).



دعـــاء نبيِّنا محمَّد ﷺ «٤»

❊ ومن المواضع الَّتي أمر الله فيها نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالدُّعاء: قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١١٨﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ].

قال الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله: «هذا إرشادٌ من الله إلى هذا الدُّعاء»[1].

وهو دعاءٌ متضمِّنٌ للاستغفار والاسترحام من الرَّبِّ الغفور الرَّحيم.

فقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ استغفارٌ، وهو طلب الغَفر.

قال الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله: «فالغَفر ـ إذا أطلق ـ معناه: محو الذَّنب وستره عن النَّاس»[2].

وقال ابن جرير الطَّبري رحمه الله: «وقل ـ يا محمَّد ـ: ربِّ استر عليَّ ذنوبي بعفوك عنها»[3].

وقوله: ﴿وَٱرْحَمْ﴾ استرحامٌ، وهو طلب الرَّحمة.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٩٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٩٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧/ ١٣٥).

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والرَّحمة معناها: أن يسدِّده ويوفِّقه في الأقوال والأفعال»[1].

وقال ابن سعدي: «وارحمنا لتوصلنا برحمتك إلى كلِّ خيرٍ»[2].

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: وأنت ـ يا ربِّ ـ خيرُ من رحم عبده، فقبل توبته، وغفر ذنبه، وترك عقوبته، وأوصله إلى كلِّ خيرٍ، وكلُّ راحمٍ للعبد فالله خيرٌ له منه، وأرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

وقد ختم الدُّعاء بهذا توسُّلًا به إلى الرَّبِّ تعالى بكمال رحمته وكثرتها وعمومها، وهو مناسبٌ للاستغفار والاسترحام، فهو من أحبِّ الوسائل إلى الله تعالى؛ لأنَّه ثناءٌ عليه سبحانه بما هو أهلٌ له من الأسماء الحسنى، والصِّفات الحميدة.

ولهذا الدُّعاء المبارك نظائر عديدةٌ في السُّنَّة يجمع فيها ﷺ بين الاستغفار والاسترحام، وهو من كمال استجابته ﷺ لأمر الله y ، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه قال للنَّبيِّ ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي؟ قال: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي،**

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٩٥).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص ٦٥٦).

إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[1].

❊ **ومن المواضع الَّتي أمر الله فيها نبيَّه محمدًا ﷺ بالدُّعاء**: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [سُورَةُ النَّصْرِ].

وهذا أمرٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ بأن يُسبِّحَ بحمد ربِّه ويستغفره، وقد جاء هذا الأمر بعد بشارة النَّبيِّ ﷺ بنصر الله تعالى، وفتح مكَّة، ودخول النَّاس في دين الله أفواجًا، ولهذا فهم طائفةٌ من الصَّحابة رضي الله عنهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُمِرَ بالتَّسبيح والتَّحميد والاستغفار شكرًا لله تعالى على هذه النِّعم الَّتي بشِّر بها.

وفهم بعضُ الصَّحابة كعمر وابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهم أنَّ مجيءَ نصر الله، والفتحِ ودخولَ النَّاس في الدِّين أفواجًا علامةٌ على اقتراب أجل رسول الله ﷺ وانقضاءِ عمرِه، وأنَّ الله تعالى أمره بالتَّسبيح، والتَّحميد، والاستغفار ليختم عمله بذلك، ويتهيَّأ للقاء ربِّه والقدوم عليه على أكمل أحواله وأتمِّها.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يكثر من التَّسبيح والتَّحميد والاستغفار بعد نزول هذه السُّورة، كما في الحديث عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**»، قالت: فقلتُ: يا رسول الله! أراك تُكثِر من قول: سبحان الله

(١) «صحيح البخاري» (٨٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٧٠٥).

وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقال: «**خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا:** ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ **فتح مكّة،** ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾» رواه مسلم[1].

وفي روايةٍ أخرى عنها رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، يتأوَّل القرآن» رواه البخاري ومسلم[2].

ومعنى قولها «**يتأوَّل القرآن**» أي: يفعل ما أمره الله به في القرآن، تعني قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

وبعدُ فهذه الآيات القرآنيَّةُ المتقدِّمُ ذكرها كانت عَرْضًا لجملةٍ طيِّبةٍ من الأدعية المباركة الَّتي أمر اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يدعو بها ربَّه، ويبتهل إليه ثناءً عليه، وسؤالًا لمصالح الدِّين والدُّنيا والآخرة.

وقد امتثل النَّبيُّ ﷺ أوامر ربِّه تعالى، وعمل بتوجيهاته سبحانه على الوجه الَّذي يحبُّه الله ويرضاه، فكان ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أكثر النَّاس دعاءً، وأحسنهم ثناءً، وأرغبهم إلى الله y، وأرهبهم منه في السَّرَّاء

---

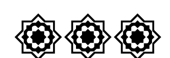
(١) مسلم (٤٨٤).

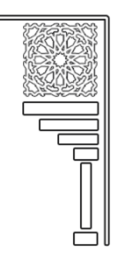
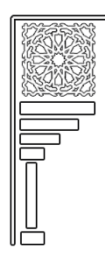
(٢) البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

والضَّرَّاء، بل فاق ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ جميع الأنبياء والمرسلين في دعاء الرَّبِّ سبحانه، وحسن الثَّناء عليه بالكلمات الجامعة العاجلة والآجلة.

فهو ﷺ لم يترك خصلةً من الخصال الحميدة، ولا خَلَّةً من الخلال الرَّشيدة إلَّا طلبها من الله، ولا خصلةً من الخصال السَّيِّئة، ولا صفةً من الصِّفات المذمومة إلَّا استعاذ به ـ تبارك وتعالى ـ منها إجمالًا وتفصيلًا، بما آتاه الله من جوامع الكلم، وكمال التَّذلُّل، وتمام الخضوع والانكسار.

فكان هديُه ﷺ أكمل الهدي وأسناه، ونهجه أتمَّ النَّهج وأسدَّه وأوفاه، فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ورزقنا الله حسن الاتِّباع لمنهجه، والاقتفاء لأثره.



فهرس الموضوعات